

صفحات من صبر العلماء

على شدائد العلم والتحصيل

بقلم

عبد الفتاح أبو غدة

الطبعة الثانية

مزيدة و محققة

الناشر

مكتب المطبوعات الإسلامية

حلب – باب الحديد – مكتبة النهضة – هاتف ١٥٢٩١

ويطلب من بيروت :

الشركة المتحدة للتوزيع ص . ب – ٧٤٦٠ هاتف ٢٩٥٥٠١

صفحات من صبر العلماء

على شدائد العلم والتحصيل

بقلم

عبد الفتاح أبو غدة

الطبعة الثانية

مزيدة و محققة

الناشر

مكتب المطبوعات الإسلامية

حلب — باب الحديد — مكتبة النهضة — هاتف ١٥٢٩١

ويطلب من بيروت :

الشركة المتحدة للتوزيع ص . ب — ٧٤٦٠ هاتف ٢٩٥٥٠١

الطبعـــة الأولى
١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م

الطبعة الثانية
١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م

مقدمة الطبعة الثانية :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدَ الشاكرين ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى من تَبِعَهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد فإنّ أخبار العلماء العاملين ، والنبهاء الصالحين ، من خير الوسائل التي تَغرِسُ الفضائلَ في النفوس ، وتَدفَعُها إلى تحمُّل الشدائد والمكاره في سبيل الغاياتِ النبيلة والمقاصد الجليلة ، وتَبعَثُها إلى التأسِّي بذَوِي التضحيات والعَزَمات ، لتَسْمُوَ إلى أعلى الدرجات وأشرفِ المقامات .

ومن هنا قال بعض العلماء من السلف : (الحكاياتُ جُنْدٌ من جُنود الله تعالى ، يُثَبِّتُ اللهُ بها قلوبَ أوليائه) . وشاهدُه من كتاب الله تعالى قولُه سبحانه : ﴿ وكُلاًّ نَقُصُّ عليكَ من أنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فُؤادَكَ ﴾ . وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه : (الحكاياتُ عن العلماءِ ومَحاسنِهم أحَبُّ إليّ من كثيرٍ من الفقه ، لأنها آدابُ القوم) . وشاهدُه من كتاب الله تعالى قولُه سبحانه : ﴿ أُولئكَ الذين هَدَى اللهُ ، فبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ . وقولُه سبحانه : ﴿ لقد كان في قَصَصِهم عِبْرَةٌ لأُولي الألباب ﴾ . نقَلَه الحافظ السَّخاوي في « الإعلان بالتوبيخ » ص ٢٠ ، والمؤرِّخ المَقَّري في « أزهار الرياض » ١ : ٢١ — ٢٢ .

هذا ، وقد لقي هذا الكتابُ : « صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل » قبولاً كريماً من القراء وطَلَبة العلم ، والفضلُ لله والحمدُ له، وتلقيتُ كلمات كثيرةً من كبار العلماء تخُصه بالتقدير والثناء، ونَفِدَتْ طبعتُه الأولى في وقتٍ قصير لم يكن مقدَّراً أن تَنفَد فيه .

ولمّا كثُر الطَّلَبُ عليه رأيتُ إعادةَ طبعه ، وحَرَصْتُ أن يَخرج في حُلّة قَشيبة جميلة مُحبَّبة إلى القراء ، ليَبقى مُحافِظاً على سَمْتِه الرفيع الذي خَرَج فيه في طبعته الأولى .

وزدتُ في هذه الطبعة الثانية زيادات كثيرةً نحوَ نصف الكتاب على الطبعة الأولى ، وصَنعتُ له محتوىً عامــاً للآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والمصادر ، والكتب ، والأعلام ، والشعر ، والموضوعات ؛ ليَسهُلَ الرجوعُ إلى الخبر وصاحبه بأيسرِ وقت ، ورَقَّمتُ الأخبار برقم متسلسل ، ليُحالَ إلى الخبر عند الحاجة برقمه ، وليكونَ الرقْمُ في أوّل الخبر أداةَ فَصْلٍ بينه وبين سابقه . وجَوّدتُ فيه الخدمةَ والضبط ما استطعت .

والله سبحانه هو وليُّ التوفيق والسَّداد ، وبيده الهُدَى والرشاد ، وهو المسئول سبحانه أن يَنفعَ به ويَجعلَه في صحيفة الحسناتِ عنده ، ويَنفعَني بدعوات المنتفعين به ، ويَجعلَني وإياهم من الذين يَستمعون القولَ فيتّبِعُون أحسنَه ،وهو ربُّنا ومولانا ونعم الربُّ والمولى ، والحمدُ لله رب العالمين .

في بيروت ٢٤ / من رجب ١٣٩٤ وكتبه عبد الفتاح أبو غدة

مقدمة الطبعة الأولى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله العليم الحكيم حقَّ حَمْدِه ، والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد رسولِه وعبدِه ، وعلى من سار على نهجه القويم المبين ، من الصحابة والتابعين ، والعلماء العاملين ، ومن تَبِعَهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد كنتُ أقِفُ خِلالَ مطالعاتي ومراجعاتي ، على كثير من أخبار علمائنا المتقدمين ، ووقائعِهم وشدائدِهم التي عانَوْها أيامَ التحصيل والطلب ، أو خِلالَ حياتِهم العلمية المملوءة بالتقشف والخشونة والعقَبَاتِ والمتاعب .

وكنتُ أرى في سطور تلك الأخبار والوقائع دروساً صامتة عظيمة ، يجب أن يَطّلع عليها شبابُنا المثقّف ، وجيلُنا المتعلّم ، واللّفيفُ الغامطُ لتراثـه العظيم ، ليُدركوا منها منزلةَ هذه العلوم الإسلامية ، التي أُلقِيَتْ بين أيديهم دانيةَ القطوف ، طيِّبةَ الثمرات والجَنَى ، فيَعرفوا قيمتَها وقيمةَ الجهود الجبّارة الهائلة التي بُذِلَتْ في تحصيلها وتدوينها ، ونقلِها وضبطِها وتلقينِها .

ويتبَدّى لهم بالتالي من ثنايا تلك الأخبار وسيرةِ أهلها : عظَمةُ المكتبة الإسلامية التي ملأت ما بين الخافقين ، وعظَمةُ رجالها الذين شادوها بأفكارهم وأقلامهم ، وأسفارهم وأعمارهم ، وجُوعهم وعَطَشِهم ، وصَبْرِهم وسَهَرِهم ،

وكدّهم ونَصَبِهم ، كما يتبدّى لهم أيضاً أن هذه المكتبة الإسلامية الزاخرة : نَسِيجُ وَحْدِها في هذا الجانب العظيم .

وقد شدّ مني العَزْمَ على جمع هذه الصفحات : أنّ إدارة (كلية الشريعة) بالرياض ، طلبَتْ مني إلقاءَ محاضرة في سلسلة محاضراتها العامة ، فرأيتُها مناسبةً حسنةً لاختيار هذا الموضوع ، إذ فيه عَرْضٌ لجانبٍ هامٍّ من تاريخ علوم الإسلام ، وتاريخ علمائه الأبرار ، يتعرّف منه أبناؤنا الطلبة : كيف صارت هذه العلوم الكريمة إليهم ، وكيف كان آباؤهم العلماء يتحمّلون المشاقّ والشدائدَ في سبيلها ... ، فيكون لهم من ذلك حافزٌ على تقدير هذا التراث العظيم ، وتبصيرٌ بما عليهم من المسئوليات نحوَه ، من خدمتِه ونشرِه والحِفاظِ عليه والدفاعِ عنه .

فكتبتُ جُلَّ هذه الصفحات[1] ، ثم أضفتُ إليها من الأخبار ما يُتمِّمُ مقاصدَها ، ويَزيدُ فوائدَها . واقتصرتُ فيها على إيراد الأخبار والوقائع دون تحليل أو تعليق عليها ، إذ هي ناطقة بذاتها . وعزوتُها إلى مصادرها ومراجعها .

وقد يَرى القارىء في هذه الصفحات بعض المصادفات العجيبة الغريبة ، التي يكاد المرءُ يظنُّ أنها مصنوعةٌ غيرُ واقعة ، لولا أن يتذكر أن هذا التاريخ الطويل عَبْرَ مِئاتِ السنين ، وهذا العالَمَ الواسع العريض ، الذي كان يموج بالعلماء موجاً في كل جانب من جوانبه ، ومن مشارق الأرض إلى مغاربها : لا يُستبعدُ أن تقع فيه — على طويل امتداده وتكاثُرِ أهلِه وتبايُنِ أحوالهم وأيامهم — لا يُستبعَدُ أن تقع فيه بعضُ الغرائب والعجائب من الموافقات والمصادفات .

---

(١) وألقيتها محاضرة في ليلة الأحد ٢٣ من المحرم سنة ١٣٩١ ، في قاعة المحاضرات العامة في كلية الشريعة بالرياض .

والإنسانُ قد يَستَبْعِدُ الشيء الغريب أحياناً ، إذا قاس قبولَه أو رَفْضَه بمقياس مألوفه في حياته القصيرة وقُطْرِه الصغير ! وقد يَستغربُه أحياناً إذا وجده كثيراً مع غرابته ، ولكن يكون مبعثُ استغرابه له في هذه الحال آتياً من كثرته التي رقف عليها دفعةً واحدة في صعيد واحد وآن واحد .

أما إذا تذكّر أن ذلك الغريب العجيب — بمقياس مألوفه — وقع في آماد مترامية من الزمن، وفي أناسٍ لا يَعلمُ عددَهم إلا الله تعالى، تقاربَ لديه قبولُ وقوعِه ، وزال منه إنكارُ حدوثِه ، وعَلِمَ أن مثَلَه في إنكاره الأوّل مثَلُ إنسان وقف على مقطع من البحر ، ثم غاص فيه وضربَ يميناً ويساراً من جنَبَات موقفِه ، فلم يشاهد في أعماق (بحره) إلا الأسماك المعتادة ، والحيوانات المائية المعروفة ، فأنكر ما يحكى عن البحر من عجائب المخلوقات.

وما درى أن تلك المخلوقات العجيبة الغريبة لم تُجمَعَ من مقطع واحد من البحر الكبير ، ولا في زمن واحد ، وإنما جُمِعَتْ من أطراف البحر التي تَنحسر عندها الأنظار والأفكار ، وجُمِعت في آماد متباعدة ، ومن أماكن متباينة ، وإنما وقع له : أنه حُدِّثَ عنها دَفعةً واحدة فأنكرها ، فاذا تذكّر هذه الحقيقةَ خضعَ لقبولها ولم ينكرها .

وقد وقع لي في أوّل حياة الدراسة والطلب ، أنني كنتُ أقف في كتب فقهائنا المتأخرين رحمهم الله تعالى ، على فروع فقهية ، بيّنوا فيها الأحكامَ لصُوَر من الغرائب الخَلْقِيّة ، التي تقع لبني الإنسان على مرور الزمان ، وحكوا فيها بعضَ الأشكال الغريبة النادرة ، فكان يُساورني رَدُّها والعَتْبُ على ذاكريها ، وكنت أحكمُ عليهم أنهم أوغلوا في الخيال والتصوُّر والإغراب إلى ما لا يُتصوَّرُ وقوعُه .

حتى إذا ما وقفتُ على كتاب « عجائب المخلوقات » لجرجي زيدان، فرأيت فيه الصُّوَرَ لتلك المخلوقات الإنسانية العجيبة ، التي سجّلتها عدسةُ التصوير فألزمَتْ بقبولِها وتصديقِها ، وفيها ما هو أعظم وأدهش مما ذكره فقهاؤنا

عليهم الرحمة والرضوان : زال من خاطري العَتْبُ عليهم ، وخلَفَه الإذعانُ والتقديرُ لهم .

وتفتّحَ أمامي أن الفقيه في القُطْر قد تُعرَضُ عليه الحادثة الغريبة ، تقَعُ في الناس بين الأزمان والأزمان ، فيُسجِّلُها ويُبيِّنُ حكمها ، فاذا جَمَعَ جامع بين تلك الغرائب في تلك الكتب ،التي دُوِّنت على مرور الأجيال ، ونظَرَ إليها نظرة واحدة قاصرة ، وغفَلَ عن الأزمان والأجيال التي وقعت فيها ، قام في نفسه الاستبعادُ لها ، والميلُ عن قبولها . وإنما أُتي من غَفْلَتِه وقِصَرِ نَظْرَتِه .

وليس معنى هذا : أنه يَلزَمُ الإنسانَ أن يُصدِّق بكل ما يُنقل أو يقال ، لا ، وإنما عليه أن يقيس الأمور إذا استغربها بمقياسها الزمني البشري الكبير ، لا بمقياسه الفردي الإنساني الصغير [١] .

(١) ومن لطيف ما وقفتُ عليه من أخبار الغرائبِ في الخِلقة ، والعجائبِ في كثرة الأولاد في البطن الواحد ، ما حكاه الحافظ المحدث المعمَّر أبو طاهر السِّلَفِي (أحمد بن محمد) ،المولود بأصبهان سنة ٤٧٨ ،والمتوفى بالإسكندرية سنة ٥٧٦ ،في كتابه : « معجَم السفَر » ، فقد جاء في القسم الذي استخرجه منه الدكتور إحسان عباس ، وطُبع في بيروت سنة ١٩٦٣ بعنوان « أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجَم السفَر للسِّلَفِي » :

جاء في هذا القسم المذكور في ص ٥٩ قولُ الحافظ السِّلَفِي رحمه الله تعالى: «سمعتُ أبا محمد عبدالله بن تويت بن الوران اللَّمْتُوني بالثغر — يعني بالإسكندرية حيث كان يُقيم السِّلَفي — يقول — وجرَّبتُه وكان ثقةً يتحرَّى الصدق —: سمعتُ أخي الأمير أبا يعقوب ينتان بن تويت الفقيه وغيرَه من المرابطين الثقات بالمغرب يقولون :

وُلِدَ في بني نورت — بطن من الملَثَّمين — جِسمان كاملان برأس واحد، فعاشا زماناً ، ثم مات أحدهما وثَقُل الآخر ، فراموا قطعه منه ، فشاوروا الفقهاء ، فقيل لهم : يَصْبِرُ أياماً ، فلم يمض قليلٌ حتى مات الآخر .

قال أبو محمد : ووُلِدَ بالأندلس في أيامنا مولودٌ برأسين. وكان ابنُ غَلاَّب

وإنما فَرَض بعضُ الفقهاء تلك الصُّوَرَ والفروعَ الغرائب ، جرياً على عادتهم في ذكر ما يمكن أن يقع عقلاً — وإن كان لا يقع عادةً أو شرعاً — للتفقيه بالتفريع للمتفقِّه ، ولمعرفة حكمِ ما قد يقع ، وإن كان ما افترضوه وتخيلوه من الحوادث النادرة قد وقع فعلاً عَبْرَ العصور والأزمان ، فرحمهم الله تعالى وجزاهم عن العلم وأهله خيراً .

هذا ، وقد قسمتُ هذه الصفحات إلى ستة جوانب من حياة العلماء :

الجانب الأول : في أخبارهم في التعب والنصَب والرحلةِ في طلب العلم وقطع المسافات .

الجانب الثاني : في أخبارهم في هجر النوم والراحةِ والدَّعةِ وسائرِ اللذَّاذات .

الجانب الثالث : في أخبارهم في الصبر على شَظَف العيش ومرَارة الفقر وبيع الملبوسات أو المفروشات .

السُّوسِي حاضرا ، فقال : الذي بلَغنا أنه وُلِدَ بالمغرب مولود برأسٍ واحدٍ له وجهان .

قال أبو محمد : وقد رأيت بحمصِ الأندلس امرأةً ولَدَتْ أول ولادتها : ولداً ، ثم في المرة الثانية : ولدين ، وفي الثالثة : ثلاثة ، وفي الرابعة : أربعة ، وفي الخامسة : خمسة ، وفي السادسة : ستة ، وفي المرةِ السابعة : سبعةً في بطن واحد ! وآيست من زوجها ! وأشرَفَتْ على الهلاك ، ثم امتنعت عن زوجها وأبت أن تطاوعه ، واشتهر أمرها عند الناس بأقطار الأندلس . وأبو محمد هذا : رجلٌ صالح من أمراء المرابطين ». انتهى .

فتكون هذه المرأة قد ولدت ٢٨ ولداً في سبعة بطون ، وإنها لمن العجائب ، ولكنْ (الله يَخْلُقُ ما يَشاء) . سبحانه .

الجانب الرابع : في أخبارهم في الجوع أو العطش في الهواجر الأيامَ والساعات .

الجانب الخامس : في أخبارهم في العُرْي الدائم ونَفادِ المال والنفقات في الغُرُبات .

الجانب السادس : في أخبارهم في فَقْد الكتب أو بيعِها والخروجِ عنها أو نحوِ ذلك عند المُلِمّات .

خاتمة : استخلَصتُ فيها ما يُستفاد من هذه الصفحات ، من الحقائق والنصائح والعِظاتِ البالغات .

وهناك جانب هام جداً كان ينبغي أن يُدخَل في هذه الصفحات ، ولكني لم أُدخله فيها لأنه تاريخ مستقل بنفسه ، وهو جانب الشدائد التي لحِقَتْ العلماء من الحكام الظُلاّم ، فآلَتْ بهم إلى غياهب السجون ، وحَجْز الحريات والنفوس ، وهو جانب هام واسع ، جدير أن تَستقِلّ به صفحات ضافية ، بل إنّ أخبارَهم المشرِّفة في هذا الجانب تَخرُجُ في مجلّد ضخم كبير لمن تتبّعها .

وهذا التقسيم الذي أشرتُ إليه ، إنما هو تقريبي تنظيمي ، فاننا سنرى أن أخبارهم في هذه الجوانب سيتداخل بعضُها في بعض ، ويَجتمع في الخبر الواحد الذي أُوردُه مثلاً (في أخبارهم في نفاد النفقة) ،يجتمع فيه إلى نفاد النفقة : العُرْيُ والجوعُ والصبرُ على خشونة الحياة . . . ، وهكذا سنرى كلّ جانب معه جوانب أخرى ، لأن حياة الإنسان متشابكة الأطراف ، فالعِلّةُ إذا نزلت في جانب من جسمه ، أصابت جانباً آخر بآثارها ومخلّفاتها ولا ريب .

وفي الختام : أسأل الله أن يتقبل هذه الصفحات وينفع بها ، وهو وليُّ الهداية والتوفيق .

بيروت ١٥ / من جمادى الآخرة ١٣٩١ **عبد الفتاح أبو غدة**

الجانب الأول

في أخبارهم في التعب والنَّصَبِ والرحلةِ في طلبِ العلم وقطعِ المسافات

وأَستهلُّه بما جاء عن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في هذا الجانب ، ثم أُتبِعهُ ما جاء عن بعض الصحابة فيه أيضاً ، ثم أُتبِعهُ ما جاء فيه عن العلماء الأجلاء .

١ — قال الإمام أبو عبد الله البخاري في « صحيحه » في كتاب العلم ١ : ١٥٣ : بابُ ما ذُكر في ذهاب موسى في البحر الى الخَضِر عليهما السلام ، وقولِهِ تعالى : ﴿ هل أَتّبِعُك على أن تُعَلِّمَني مما عُلِّمتَ رُشْداً ﴾ .

ثم رَوى البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما « أنه تَمارَى —أي اختلَف— هو والحُرُّ بن قَيْس الفَزاري في صاحب موسى عليه السلام — من هو ؟ — فقال ابن عباس : هو خَضِر .

فمَرَّ بهما أُبَيّ بن كعب ، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريتُ أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيلَ إلى لُقِيِّه ، هل سمعتَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يذكر شأنَه ؟ قال : نعم ، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل ، جاءه رجل فقال : هل تَعلَمُ أحداً أعلمَ منك ؟ قال موسى : لا ، فأوحى الله إلى موسى : بَلْ عَبْدُنا

خَضِر ، فسأل موسى السبيلَ إليه ، فجعل الله له الحُوتَ آيةً ، وقيل له : إذا فَقَدتَ الحُوتَ فارجع فإنك ستلقاه .

وكان يَتْبَعُ أثرَ الحوت في البحر ، فقال لموسى فتاه ﴿أرأيتَ إذْ أَوَيْنا إلى الصخْرةِ فإني نَسيتُ الحُوتَ وما أنسانيهُ إلا الشيطانُ أن أذْكُرَه ... ، قال : ذلكَ ما كُنّا نَبْغي فارتدّا على آثارهما قَصَصاً﴾ فوجدا خَضِراً ، فكان مِن شأنهما الذي قصّ الله عز وجل في كتابه » .

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١ : ١٥٣ عند شرحه لهذا الحديث « هذا البابُ معقودٌ للترغيب في احتمالِ المشقّة في طلب العلم ، لأنّ مايُغتَبَطُ به تُحتَمَلُ المشقةُ فيه ، ولأن موسى عليه الصلاة والسلام لم يمنعه بلوغُه من السيادةِ المحلَّ الأعلى من طلبِ العلم وركوبِ البر والبحر لأجله .

وفي الحديث : ركوبُ البحر في طلبِ العلم ، بل في طلبِ الاستكثار منه ، ولزومُ التواضع في كل حال » . انتهى .

قال الحافظ الخطيب البغدادي في « الرحلة في طلب الحديث » ص ٥٣ عقبَ هذا الحديث : « قال بعضُ أهل العلم : إنّ فيماعاناه موسى من الدّأْب والسّفَر ، وصَبَرَ عليه من التواضعِ والخضوعِ للخضر ، بعد مُعاناة قصدِه مع محلِّ موسى من الله عز وجل ، وموضعه من كرامته وشَرَفِ نُبوّته : دلالةً على ارتفاع قَدْرِ العلم وعلوِّ منزلةِ أهله ، وحُسْنِ التواضع لمن يُلتَمَسُ منه ويؤخَذُ عنه .

ولو امتَنَع عن التواضع لمخلوقٍ أحَدٌ ، لارتفاعِ درجةٍ وسُموِّ منزلة ، لَسَبَق إلى ذلك موسى . فلما كان الجِدُّ والاجتهادُ والانزعاجُ عن الوطن لمن يُحرِصُ على الاستفادة منه ، مع الاعتراف بالحاجة إلى أن يَصِلَ من العلم إلى ما هو غائب عنه : دلّ على أنه ليس في الخلق من يعلو على هذه الحالِ ولا يَتكبرُ عنها » . انتهى مصححاً بقدر الإمكان.

٢ — وروَى البخاري في « صحيحه » في كتاب المناقب في (باب قصة إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه) ٦ : ٤٠٠ ، وفي (باب قصةزمـزم) ٦ : ٤٠٠ أيضاً ، وفي (باب إسلام أبي ذر الغِفاري رضي الله عنه) ٧ : ١٣٢ ، وروَى مسلم في « صحيحه » في (فضائل أبي ذر رضي الله عنه) ١٦ : ٣٢ واللفظُ له عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لمّا بلَغ أبا ذر مبعثُ النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، قال لأخيه — أُنَيس — : اركب إلى هذا الوادي ، فاعْلَمْ لي عِلْمَ هذا الرجل ، الذي يَزعُمُ أنه يأتيه الخبرُ من السماء ، فاسْمَعْ مِن قولِه ثم ائتني .

فانطلق — أُنَيس — حتى قدم مكة وسَمِعَ من قولِه ، ثم رجع إلى أبي ذر فقال : رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق ، و — سمعتُه يقول — كلاماً ما هو بالشعر ، فقال أبو ذر : ما شَفَيتَني فيما أردتُّ !

فتزوَّدَ — أبو ذر — وحمَلَ شَنّةً له فيها ماء [1] ، حتى قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمَسَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه ، وكرِه أن يَسأل عنه ، حتى أدركه الليلُ فاضطجع ، فرآه عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه فعرف أنه غريب ، ودعاه إلى منزله — فتَبِعَه ، فلم يَسأل واحد منهما صاحبَه عن شيء حتى أصبح .

ثم احتَمَلَ قِربتَه وزاده إلى المسجد ، وظلّ ذلك اليوم ولا يَرَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمرّ به عليٌّ فقال : ما آن للرجل أن يَعلمَ منزلَه ؟ فأقامه فذهب به معه ، ولا يَسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان يومُ الثالثِ فعَلَ مثل ذلك ، فأقامه عليٌّ معه . ثم قال له : ألا تُحدثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إنْ أعطيتني عهداً وميثاقاً لَتُرْشِدَنّي فعلتُ ، ففعل ، فأخبره ، فقال : فإنه حقٌّ ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الشنة هي القِربة البالية .

فاذا أصبحتَ فاتّبِعني ، فان رأيتُ شيئاً أخاف عليكَ قمتُ كأني أُريق الماء ، فان مضيتُ فاتّبِعني حتى تَدخُلَ مَدْخَلي ، ففعل فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ودخل معه ، فسمع من قولِه وأسلم مكانه ، الحديث .

٣ — وهناك رواية أخرى في حادثة إسلام أبي ذر ، رواها عنه ابنُ أخيه عبد الله بن الصامت الغفاري ، وقد رواها مسلم أيضاً ١٦ : ٢٧ من طريق عبدالله بن الصامت الغفاري ابن أخي أبي ذر ، وملخّصُها : قال : قال أبو ذر : خرجنا من قومنا غِفار ، وكانوا يُحِلّون الشهر الحرام ، فخرجتُ أنا وأخي أُنَيْس وأُمُّنا ، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة .

فقال أُنَيس : إنَّ لي حاجة بمكة فاكْفِني [1] ، فانطلق أُنَيس حتى أتى مكة فراثَ عليَّ — أي أبطأ — ، ثم جاء ، فقلت : ما صنعتَ ؟ قال : لقيتُ رجلاً بمكة يزعم أنَّ الله أرسله ، قلت : فما يقولُ الناسُ ؟ قال : يقولون: شاعر كاهن ساحر ، — وكان أُنَيس أحَدَ الشعراء — قال أُنَيس : لقد سمعتُ قولَ الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وَضَعْتُ قوله على أقراء الشعر — أي طُرُقِه — فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر ، والله إنه لصادق ، وإنهم لكاذبون.

قال أبو ذر : قلت : فاكْفِني حتى أذهب فأنظر ، قال : فأتيتُ مكة ، فتضَعّفْتُ رجلاً منهم — يعني نظرتُ إلى أضعفهم فسألته ، لأن الضعيف يكون مأمون الغائلة غالباً — . فقلتُ له : أين هذا الذي تدعونه الصابىء ؟ فأشار إليَّ

(1) وقع في « صحيح مسلم » المطبوع معه « شرح النووي » بلفظ (فأكفني) هنا وفيما يأتي : بهمزة فوق الألف وعليها فتحة . وهو تحريف . وصوابه (فاكفِني) بدون همزة ، فعلاً ثلاثياً كما أثبتُّه . ولم أجد في كتب اللغة التي رجعت إليها : (أكفني) فعلاً رباعياً ، ولو كان مروياً بهذا لضَبَطه شراح « صحيح مسلم » مثل النووي والأبّي والسَّنُوسي ، وعَدَمُ تعرُّضِهم لضبطه يفيد أنه جاء على الجادّة ثلاثياً ، فيُصحَّحُ ما وقع في « صحيح مسلم » .

فقال : الصابىء ! فمال عليَّ أهل الوادي بكل مَدَرة وعَظْم ، حتى خررت مغشياً علي ، فارتفعت حين ارتفعت كأني نُصُبٌ أحمر — يعني من كثرة الدماء التي سالت منه ، صار كالنُّصُب وهو الحَجَر الذي كان أهل الجاهلية ينصبونه ويذبحون عنده فيَحمرُّ بالدم — .

قال : فأتيتُ زمزم فغَسلتُ عني الدماء ، وشَربتُ من مائها ، ولقد لبِثتُ يا ابن أخي ثلاثين بين ليلة ويوم ، ما كان لي طعام إلا ماءُ زمزم ، فسَمِنت حتى تكسّرَتْ عُكَنُ بطني [1] ، وما وجدتُ على كبدي سُخْفَةَ جُوع — يعني أثَرَ الجوع وضَعْفَه — .

قال : فبينا أهلُ مكة في ليلة قمراء إذ ضُرِب على أسمختهم — أي آذانهم بالنوم — فما يطوف بالبيت أحد ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، حتى استلَم الحَجَر وطاف بالبيت هو وصاحبُه ، ثم صلّى ، فلما قَضَى صلاته قلتُ : السلامُ عليك يارسول الله ، فقال : وعليك ورحمة الله .

ثم قال : مَنْ أنت ؟ قلت : من غِفار ، قال : فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته ، فقلت في نفسي : كَرِه أن انتميتُ إلى غفار ، فذهبتُ آخُذُ بيده ، فقَدَعَني — أي كَفّني — صاحبُه وكان أعلَمَ به مني . — يعني فعَلَ هذا لدفع السوء عني وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم — .

ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسَه ثم قال : متى كنتَ هاهنا ؟ قال : قلتُ : قد كنتُ ها هنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم ، قال : فمن كان يُطعمك ؟ قال : قلت : ما كان لي طعام إلا ماءُ زمزم ، فَسَمِنْتُ حتى تكسّرَتْ عُكَنُ بطني ، وما أجِدُ على كبِدي سُخْفَةَ جوع ، قال : إنها مباركة إنها طَعامُ طُعْم — أي هي تُشبع شاربَها كما يُشبعه الطعام — .

(1) العُكَن جمع عُكْنة ، وهي ما انطوى وتَثَنّى من لحم البطن سِمَناً . وهذا من بركة ماء زمزم .

فقال أبو بكر : يارسول الله ائذن لي في طعامه الليلة ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وانطلقتُ معهما ، ففتح أبو بكر باباً فجعل يَقبض لنا من زَبيب الطائف ، وكان ذلك أوّلَ طعام أكلتُه بمكة ، الحديث [1] .

٤ — وقال البخاري في « صحيحه » في كتاب العلم في (باب التناوب في العلم) ١ : ١٦٨ ، وفي كتاب النكاح في (باب موعظة الرجل ابنته) ٩ : ٢٤٤ « عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

كنتُ أنا وجارٌ لي من الأنصار — هو أوسُ بن خَوَلّيّ الأنصاري — في بني أمية بن زيد — أي ناحية بني أمية — ، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوبُ النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فإذا نزلتُ جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك » . انتهى.

وأُتبعُ خبرَ عمر بن الخطاب هذا خبرَ جابر بن عبد الله رضي الله عنهم ، وهو أطيب وأعجب .

٥ — قال الإمام أبو عبدالله البخاري في « صحيحه » في كتاب العلم ١ : ١٥٨ (باب الخروج في طلب العلم) : « ورَحَلَ جابر بن عبد الله مسيرةَ شهر إلى عبد الله بن أُنَيس في حديث واحد » .

يشير البخاري بهذا إلى الحديث الذي رواه في كتابه : « الأدب المفرد » في باب المعانقة ص ٣٣٧ من طريق عبد الله بن محمد بن عَقيل ، أنه سمع جابر ابن عبد الله يقول : « بلَغَني عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتريتُ بعيراً ثم شددتُ رحلي ، فسِرتُ إليه شهراً حتى قَدِمتُ الشام ، فإذا عبد الله بن أُنيس ، فقلتُ للبوّاب : قل له : جابرٌ على الباب ، فقال : ابنُ عبد الله ؟ قلت : نعم .

(١) وقد سعى الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ٧ : ١٣٢ ، في التوفيق بين هاتين الروايتين في إسلام أبي ذر : رواية ابن عباس ورواية عبدالله بن الصامت الغفاري .

فخرج عبدُ الله بن أُنَيس فاعتنقني ، فقلت : حديث بلغني عنك أنك سمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخشيتُ أن أموت أو تموت قبل أن أسمعَه ، فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يَحشُرُ اللهُ الناسَ يوم القيامة عُراةً غُرْلاً [1] بُهْماً ، قلنا : ما بُهْماً ؟ قال : ليس معهم شيء .

فيناديهم بصوت يَسمَعُه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُب : أنا الملك — أنا الديّان — ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يَدخلُ الجنة ، وأحدٌ من أهل النار يطلبه بمظلمة ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار ، وأحدٌ من أهل الجنة يطلبه بمظلمة — يعني لا يدخل أهلُ الجنة : الجنةَ . وأهلُ النار : النارَ إلا بعد تصفية الحساب — قلت : وكيف ؟ وإنما نأتي الله عُراةً بُهماً ؟ قال: بالحسنات والسيئات ». يعني القِصاص يكون بالحسنات والسيئات . انتهى .

وقد ساق الحافظ الخطيب البغدادي خبر جابر هذا في كتابه « الرحلة في طلب الحديث » ص ٥٣ — ٥٥ من طرق كثيرة، ورَوَى غيرَه من أخبار الصحابة الذين رحلوا في طلب الحديث . وكتابُ « الرحلة » للخطيب كتاب نافع مِهْماز للمتخلِّفين عن الرحلة ، فاقرأه لعلك ترحل .

وقال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١ : ١٥٩ بعد أن أورد حديثَ جابر هذا في رحلته إلى عبد الله بن أُنَيس : « وفي هذا الحديث ما كان عليه الصحابة من الحرص على تحصيل السنن النبوية » .

ثم قال الحافظ ابن حجر : « قيل لأحمد بن حنبل : رجلٌ يطلبُ العلم يلازِمُ رجلاً عنده علمٌ كثير أو يَرحَلُ ؟ قال : يرحل ، يكتُبُ عن علماء

(١) جمع أغرل ، وهو الذي لم يختن . أي يحشرون على حالتهم قبل الختان .

الأمصار ، فيُشامُّ الناسَ ويتعلّم منهم » . انتهى[1] .

٦ — وفي « شرح الألفية » للحافظ العراقي ٢ : ٢٢٦ ، و « فتح المغيث » للحافظ السخاوي ص ٣٢١ : « سأل عبدُ الله بن أحمد بن حنبل أباه : هل ترى لطالب العلم أن يلزمَ رجلاً عنده علمٌ فيكتبَ عنه ؟ أو يرحلَ إلى المواضع التي فيها العلماء فيسمعَ منهم ؟ قال : يرحَلُ ، ويكتبُ عن الكوفيين والبصريين وأهلِ المدينة ومكة ، يُشامُّ الناسَ يسمعُ منهم .

وقال يحيى بن مَعين : أربعةٌ لا تُؤنِسُ منهم رُشداً ، وذكَرَ منهم : رجلاً يكتبُ في بلده ولا يرحلُ في طلب الحديث .

---

(١) وجاء هذا الخبر في « الرحلة في طلب الحديث » للخطيب البغدادي ص ٤٧ عن الإمام أحمد بلفظ « ... قال : يرحَلُ ، يكتُبُ عن الكوفيين والبصريين وأهلِ المدينة ، يُشافِهُ الناسَ ليَسمعَ منهم » . انتهى .

وقولُه هنا في هذه الرواية الثانية : (يُشافِهُ النّاسَ ليَسمع منهم) ، من (المُشافَهَة) ، وهو لفظٌ صحيحُ المعنى ، والمشافهةُ أن يُكلِّم كلٌّ واحدٍ صاحبَه مُدْنياً شفَتَه من شفَتِه ، أي يُحادِثُه بقربٍ تامّ ولقاء .

وقولُه في الرواية الأولى : (فيُشامُّ الناسَ ويتعلمُ منهم) ، من (المُشامَّة) ، وسيأتي بهذا اللفظ أيضاً في الخبر التالي ذي الرقم — ٦ — وهو لفظ صحيح المعنى أيضاً ، قال ابن الأثير في « النهاية » : « يقال : شاممتُ فلاناً إذا قاربتَه وتعرَّفتَ ما عنده بالاختبار والكشف ، وهي مُفاعَلَة من الشمّ ، كأنك تَشَمُّ ما عنده ويَشَمُّ ما عندك ، لتَعملا بمقتضى ذلك » . انتهى .

ومن (المُشامَّة) قولُ مسروق التابعي رضي الله عنه : « شاممتُ أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم ، فوجدتُ علمَهم ينتهي إلى ستة ... ، ثم شاممتُ الستة فوجدتُ علمَهم انتهى إلى عليٍّ ، وعبدِ الله بن مسعود » . كما في « إعلام الموقِّعين » لابن القيم ١ : ١٦ . ولفظُ الرواية الأولى : (يُشامُّ الناسَ) في هذا المقام أبلَغُ وأعلى وأوسَعُ دلالةً من لفظ (يُشافهُ الناس) ، وكل منهما صحيح من حيث المعنى ، ولعل الأثبتَ روايةً عن الإمام أحمد لفظُ (يُشامُّ الناس) ، والله أعلم .

وقيل لأحمد بن حنبل : أيَرحَلُ الرجلُ في طلب العلم ؟ فقال : بلى والله شديداً ، لقد كان علقمةُ بن قيس النَّخَعي ، والأسودُ بن يزيد النخعي ، — وهما من أهل الكوفة بالعراق — ، يَبلغُهما الحديثُ عن عُمَر ، فلا يُقنعهما حتى يَخرَجا إليه — إلى المدينة المنورة — ، فيَسمعانه منه » .

٧ — قال القاضي ابن خلدون أستاذ علم الاجتماع في « مقدمته » ص٢٧٩ « إنَّ الرحلة في طلب العلوم ولقاء المَشْيَخة : مَزيدُ كمال في التعليم . والسببُ في ذلك أن البَشَر يأخذون معارفَهم وأخلاقهم وما يَتحلّون به من المذاهب والفضائل ، تارةً : علماً وتعليماً ولقاءً ، وتارةً : مُحاكاةً وتلقيناً بالمباشرة . إلا أن حصول المَلَكات عن المباشرة والتلقين ، أشدُّ استحكاماً وأقوى رسوخاً ، فعلى قَدْرِ كثرةِ الشيوخ يكون حصولُ الملكاتِ ورسوخُها — وتَفَتُّحُها — .

والاصطلاحاتُ أيضاً في تعليم العلوم مُخلِّطة على المتعلِّم ، حتى لقد يَظُنُّ كثير منهم أنها جزء من العلم ، ولا يَدفع عنه ذلك إلا مباشرتُه لاختلاف الطرق فيها من المعلِّمين .

فلقاءُ أهل العلوم ، وتَعدُّدُ المشايخ : يُفيده تمييزَ الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طُرقهم فيها ، فيُجرِّدُ العلمَ عنها ، ويَعلمُ أنها أنحاءُ تعاليم وطُرقُ توصيل ، وتَنهضُ قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المَلَكات ، ويُصحِّحُ معارفَه ويُميِّزُها عن سواها ، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين ، وكثرتِهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم ، وهذا لمن يسَّر الله عليه طُرقَ العلم والهداية .

فالرِّحلةُ لا بد منها في طلب العلم ، لاكتساب الفوائد والكمال ، بلقاء المشايخ ومباشرةِ الرجال ، ﴿ واللهُ يَهدي من يَشاءُ إلى صراط مستقيم ﴾ . انتهى .

وما أجملَ قولَ الشاعرِ العالمِ الرحّالِ — الذي طوَى البلادَ والأرضَ

حتى طَوَتْه ! — أبي إسحاق الغَزّي (إبراهيم بن عثمان) ، المولود بغَزّة من بلاد فلسطين عام ٤٤١ ، والمتوفى ما بين مَرْوَ وبَلْخ من بلاد خُراسان ، ونُقِلَ إلى بلخ ودُفن بها سنة ٥٢٤ رحمه الله تعالى وأكرم مثواه ، ما أجملَ قولَه في الحضِّ على الرحلة والتطواف ، وفضلِ الرحيل عن الأرض التي تُجهَل أو تَضيعُ فيها الأكابرُ والأشراف :

لا تعْجبَنَّ لمن أغناه عن أدبٍ جَهْلٌ ! فإنَّ العَمَى يُغني عن السُّرُجِ
أخفاكَ مُكثُك في أرض نشأتَ بها وليس يُعرَفُ قَدْرُ الدُّرِّ في اللُّجَجِ

٨ — أنتقلُ بعد هذا إلى ما جاء في هذا الجانب ، عن العلماء التابعين ومن بعدَهم من أئمة المسلمين ، فأستهله بما جاء عن التابعي الجليل العابد الفقيه (مسروق بن الأجدع الهَمداني) اليمني الكوفي ، المتوفى سنة ٦٣ رحمه الله تعالى ، صاحبَ عبد الله بن مسعود ، والذي قال فيه الشَّعْبِيُّ : ما رأيتُ أطلَبَ للعلم منه ، حكى الحافظ ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » ١ : ٩٤ « أنَّ مسروقاً رحَلَ في حَرْف — أي من أجل كلمةٍ واحدة — وأن أبا سعيد — لعله الحسن البصري — رحَلَ في حَرْف » أيضاً .

٩ — وساق الخطيب البغدادي في كتابه « الكفاية في علم الرواية » ص ٤٠٣ ، عن التابعي الجليل (أبي العالية) رُفَيع بن مِهْران الرِّياحي البصري ، المتوفى سنة ٩٣ رحمه الله تعالى ، « قال أبو العالية : كنا نَسمَعُ الرواية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالبصرة ، فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنَسمَعَها من أفواههم » .

١٠ — وجاء في ترجمة سيد التابعين (سعيد بن المسيِّب) عالم المدينة المنورة المولود سنة ١٣ ، والمتوفى سنة ٩٤ رحمه الله تعالى ورضي عنه ، عند الحافظ ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » ٩ : ١٠٠ « قال مالك عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيِّب ، قال : كنتُ أرحَلُ الأيامَ والليالي في طلب الحديث الواحد » .

١١ — ورَوى الحافظ الرامَهُرْمُزي في كتابه « المحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي » ص ٢٢٤ عن الشعبي التابعي الجليل : (عامر بن شَرَاحيل) الكوفي الهَمْداني ، المولود سنة ١٩ والمتوفى سنة ١٠٣ رحمه الله تعالى «أنه خرج — من الكوفة — إلى مكة في ثلاثة أحاديث ذُكِرَتْ له ، فقال : لعلي ألقى رجلاً لقي النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، أو : من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم» .

١٢ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ١ : ٨١ و ٨٤ في ترجمة الإمام الشعبي (عامر بن شَراحيل الكوفي الهَمْداني) أيضاً رحمه الله تعالى :

« قال ابن شُبْرُمة : سمعتُ الشعبيَّ يقول : ما كتبتُ سوداء في بيضاء إلى يومي هذا ، ولا حدَّثني رجل بحديث قط إلا حفظتُه ، ولا أحببتُ أن يعيده علي ، ولقد نسيتُ من العلم ما لو حفظه أحد لكان به عالماً .

وعن وادعٍ الراسبي عن الشعبي قال : ما أروي شيئاً أقلَّ من الشعر ، ولو شئتُ لأنشدتكم شهراً لا أعيد .

قال ابن المديني : قيل للشعبي : من أين لك هذا العلمُ كلُّه ؟ قال : بنَفْي الاعتماد ، والسَّيْرِ في البلاد ، وصَبْرٍ كصَبْرِ الجماد ، وبُكور كبُكور الغُراب » .

١٣ — وروى الخطيب البغدادي في « الرحلة في طلب الحديث » ص ٦٢ ، بسنده إلى التابعي الجليل أبي قِلابَة (عبد الله بن زيد) الجَرْمي البصري أحد الأعلام ، المتوفى سنة ١٠٤ ، أنه قال : « أقمتُ في المدينة ثلاثاً — ولعلها : ثلاثة أشهر — ، ما لي بها حاجةٌ إلا قُدومُ رجلٍ بلغني عنه الحديث ، فبلَغَني أنه يَقدَم ، فأقمتُ حتى قَدِم فحدَّثني به » .

١٤ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ١ : ١٠٨ ، في ترجمة الإمام التابعي الجليل (مكحول الشامي) إمام أهل الشام وفقيههم ، المولود في بلدة كابُل من أفغانستان ، والمتوفى بدمشق من بلاد الشام سنة ١١٢ رحمه الله :

«عن ابن إسحاق قال: سمعتُ مكحولاً يقول: طُفتُ الأرض في طلب العلم. وروى أبو وهب عن مكحول قال: أُعتقتُ بمصر، فلم أدَعْ بها علماً إلا حويتُه فيما أُرى، ثم أتيتُ العراق ثم أتيتُ المدينة، فلم أدع بهما علماً إلا حويتُ عليه فيما أرى، ثم أتيتُ الشام فغربلتُها».

١٥ — وجاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض، في ترجمة (الإمام عبد الله بن فَرُّوخ الفارسي القيرواني) وهو أحَدُ أصحاب مالك وأبي حنيفة والثوري وغيرهم، وتوفي بمصر سنة ١٧٥، «قال: لما أتيتُ الكوفة، وأكثَرُ أمَلي السماعُ من الأعمش، فسألت عنه فقيل لي: غَضِبَ على أصحاب الحديث، فحلَفَ أن لا يُسمعهم مُدَّة.

فكنت أختلِفُ إلى باب داره لعلي أصِلُ إليه؟ إذ فتحتْ جارية بابَه يوماً وخرجَتْ منه، فقالت لي: ما بالُك على بابنا؟! فأعلمتُها بخبري، قالت: وأين بلدُكم؟ قلت: إفريقية، فانشرَحَتْ إليَّ وقالت: تَعرف القيروان؟ قلت: أنا من أهلها، قالت: تعرف دارَ ابن فَرُّوخ؟ قلت: أنا هو، فتأمَّلَتْني ثم قالت: عبدُ الله؟ قلت: نعم، وإذا هي جاريةٌ لنا بعناها صغيرةً، فسارعتْ إلى الأعمش وقالت له: مولاي الذي كنتُ أُخبرك بخبره بالباب. فأمَرَ بإدخالي فدخلت. وأسكنني بيتاً قُبالةَ بيته، فسمعتُ منه وحدَّثني».

وأنتقلُ بعد هذا إلى ما جاء في هذا الصدَد، عن سيد المحدثين وإمام أهل السنة ورافع لوائها، وشيخ الزهاد والعُبَّاد الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل، المولود سنة ١٦٤، والمتوفى سنة ٢٤١ رضي الله عنه.

١٦ — جاء في «المنهج الأحمد» لأبي اليُمن العُلَيمي الحنبلي، وقد استهَلَّ كتابه هذا بترجمة الإمام أحمد فقال ١: ٨ «طلَبَ الإمامُ أحمدُ الحديثَ وهو ابن ست عشرة سنة، وخرج إلى الكوفة سنة ثلاث وثمانين وميئة، وهو أوَّلُ سفر له، وخرج إلى البصرة سنة ست وثمانين، وخرج إلى سفيان ابن عُيَينة إلى مكة سنة سبع وثمانين، وهي أوَّلُ سنة حجَّ فيها الإمام أحمد،

وخرج إلى عبد الرزاق بصنعاءِ اليمن سنة سبع وتسعين، ورافق يحيى بنَ معين — في رحلته إليه — ».

١٧ — وقال الفقيه أحمد بن حَمْدان الحنبلي في كتابه «صفة الفتوى والمفتي والمستفتي» ص ٧٨ «قال الإمام أحمد: رحلتُ في طلب العلم والسُّنة إلى الثغور، والشامات، والسواحل، والمغرب، والجزائر، ومكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقين جميعاً، وفارس، وخراسان، والجبال، والأطراف، ثم عُدتُ إلى بغداد».

١٨ — وجاء في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر ١: ٧٣ في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل: «قال أحمد: حججتُ خمسَ حِجَج، منها ثلاثُ حجج راجلاً — ولا يغيبُ عنك أن بلدَه: بغداد —، أنفقتُ في إحدى هذه الحِجَج ثلاثين درهماً». وقال ابن الجوزي في «صيد الخاطر» في الفصل — ١٧٥ —: «طاف الإمام أحمد بن حنبل الدنيا مرَّتين حتى جَمَعَ المُسْنَد».

١٩ — وهذا الحافظ الإمام الفقيه المحدِّث (أبو يعقوب إسحاق بن منصور الكَوْسَج المَرْوَزي)، المتوفى سنة ٢٥١، تلميذُ الإمام أحمد وراوي (المسائل) في الفقه عنه، كان قد قَدِمَ من مَرْوَ إلى بغداد، وتلقّى عن الإمام أحمد الفقه والحديث، ثم رجع إلى خراسان واستقر في نيسابور.

ثم بلَغَه أن الإمام أحمد رجع عن (المسائل) التي تلقّاها منه، فمشى على قدميه من نيسابور إلى بغداد، ليتَثَبَّتَ من رأي الإمام أحمد في تلك (المسائل) التي كتبها عنه.

قال ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» ١: ١١٤، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» ٢: ٥٢٤، والعُلَيمي في «المنهج الأحمد» ١: ١٢٣:

«كان إسحاق بن منصور الكَوْسَج فقيهاً عالماً، وهو الذي دوَّن عن الإمام أحمد (المسائل) في الفقه، قال حسّان بن محمد: سمعتُ مشايخنا

يذكرون أن إسحاق بن منصور ، بلَغَه أن أحمد بن حنبل رجع عن تلك (المسائل) التي علّقها عنه ، فجَمَع إسحاقُ بن منصور تلك (المسائل) في جِراب ، وحَمَلَها على ظهره ، وخَرَج راجلاً إلى بغداد وهي على ظهره ، وعرَضَ خُطوطَ أحمد عليه في كل مسألة استفتاه فيها ، فأقرَّ له بها ثانياً ، وأُعجِبَ أحمدُ بذلك من شأنِه » .

٢٠ — وهذا خبرآخر من أعجب الأخبار وأغربها ، وقع لعالم مغربي ممن رحلوا من المغرب الأقصى إلى المشرق ، وقد رحل هذا العالم المغربي إلى المشرق ليلقى إماماً من أئمته فيأخذ عنه العلم ،ولكنه حين وصل إليه وجده محبوساً ممنوعاً عن الناس ، فتلطّف وتحيّل حتى لقيه فأخذ العلم عنه ، بصورة لا تخطر على البال لولا وقوعُها . والتاريخ أبو العجائب والغرائب .

جاء في « المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد » للعُلَيمي ١ : ١٧٧ ، وفي « اختصار النابلسي لطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى » ص ٧٩ في ترجمة الإمام (بَقِيِّ بن مَخْلَد الأندلسي) : « هوأبو عبدالرحمن بَقِيُّ بن مَخْلَد الأندلسي الحافظ ،ولد سنة ٢٠١ ،ورحل إلى بغداد — على قدميه — ، وكان جُلُّ بغيته ملاقاةَ الإمام أحمد بن حنبل والأخذَ عنه .

حُكي عنه أنه قال : لما قَرُبتُ من بغداد اتصل بي خبرُ المحنة التي دارت على أحمد بن حنبل ، وأنه ممنوع من الاجتماع إليه والسماع منه ، فاغتممتُ بذلك غماً شديداً ، فاحتلَلتُ الموضع ، فلم أعرج على شيء بعد إنزال متاعي في بيت اكتريتُه في بعض الفنادق أن أتيتُ المسجد الجامع الكبير ، وأنا أريد أن أجلس إلى الحِلَق وأسمع ما يتذاكرونه .

فدُفِعتُ إلى حلقة نبيلة ، فاذا برجل يكشف عن الرجال ، فيُضعِّفُ ويُقوِّي ، فقلت : من هذا ؟ لمن كان قربي ، فقال : هذا يحيى بن معين ، فرأيتُ فرجة قد انفرجت قُرْبَه ، فقمت إليه فقلت له: يا أبا زكريا رحمك الله ، رجل غريب نائي الدار ، أردتُ السؤال فلا تَستخفّني ، فقال لي : قُلْ ،

فسألته عن بعض من لقيتُ من أهل الحديث ، فبعضاً زكّى ، وبعضاً جرَّح .

فسألته في آخر السؤال عن هشام بن عمار ، وكنتُ قد أكثرت من الأخذ منه ، فقال : أبو الوليد هشام بن عمار صاحبُ صلاة ، دمشقي ثقة وفوق الثقة ، لو كان تحت ردائه كِبْر أو تقلد كبراً ما ضرّه شيئاً لخيره وفضلِه ،فصاح أهلُ الحلقة : يكفيك رحمةُ الله عليك ، غيرُك له سؤال .

فقلت : وأنا واقف على قدمي : أكشفُك عن رجل واحد : أحمد بن حنبل ؟ فنظر إليَّ يحيى بن معين كالمتعجِّب وقال لي : ومثلنا نحن يكشف عن أحمد بن حنبل ؟ ! إنَّ ذاك إمامُ المسلمين وخيرُهم وفاضلُهم .

ثم خرجت أستدل على منزل أحمد بن حنبل ، فدُلِلتُ عليه ،فقرعتُ بابه ، فخرج إليَّ وفتَح الباب ، فنظر إلى رجل لم يعرفه ، فقلت : يا أبا عبد الله رجل غريب الدار ، هذا أول دخولي هذا البلد ، وأنا طالبُ حديث ومُقَيِّدُ سُنّة — أي جامعُ سُنّة — ، ولم تكن رحلتي إلا إليك ، فقال لي : ادخل الأُسطوان — يعني به المَمَرَّ إلى داخل الدار — ولا تقع عليك عين .

فقال لي : وأين موضعك ؟ قلت : المغرب الأقصى ، فقال لي : إفريقية ؟ فقلت : أبعَدُ من ذلك — أجوزُ من بلدي البحرَ إلى إفريقية — الأندلسُ ، فقال لي : إنَّ موضعك لبعيد،وما كان شيء أحبَّ إليَّ من أن أُحسن عَوْنَ مثلِك على مطالبه ، غير أني في حيني هذا ممتحَن بما لعله قد بلغك . فقلت له : بلى قد بلغني وأنا قريب من بلدك مقبلٌ نحوك .

فقلت له : أبا عبد الله هذا أول دخولي ، وأنا مجهول العين عندكم ، فان أذنتَ لي أن آتي في كل يوم في زيِّ السُّؤّال ، فأقولَ عند باب الدار ما يقولونه ، فتَخرُجَ إلى هذا الموضع ، فلو لم تحدثني في كل يوم إلا بحديث واحد لكان فيه كفاية ، فقال لي : نعم، على شرط أن لا تظهر في الحِلَق ولا عند أصحاب الحديث ، فقلت : شَرْطُك .

فكنت آخذ عُوداً بيدي ، وألُفُّ رأسي بخرقة ، وأجعل كاغدي — أي ورقي — ودَواتي في كُمّي ، ثم آتي بابه فأصيح : الأجْرَ رحمكم الله . والسُّؤالُ هنالك كذلك، فيَخرج إليّ ويغلق باب الدار ، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر .

فالتزمت ذلك حتى مات الممتحِن له ، ووَليَ بعده من كان على مذهب السُّنّة ، فظهر أحمد بن حنبل ، وسَمَا ذكرُه ، وعظُمَ في عيون الناس ، وعلَتْ إمامتُه ، وكانت تُضرَب إليه آباط الإبل ،فكان يَعرف لي حقَّ صبري .

فكنت إذا أتيت حلقته فسّحَ لي وأدناني من نفسه ، ويقول لأصحاب الحديث : هذا يقع عليه اسمُ طالب العلم ، ثم يقص عليهم قصتي معه، فكان يناولني الحديث مناولة ، ويقرؤه عليّ ، وأقرؤه عليه .

فاعتللت علّة أشفيت منها ، ففقَدَني من مجلسه فسأل عني ، فأُعلم بعلّتي ، فقام من فوره مقبلاً إليّ عائداً لي بمن معه ، وأنا مضطجع في البيت الذي كنت اكتَريت ، ولِبْدي تحتي ، وكسائي عليّ ، وكتبي عند رأسي .

فسمعت الفندقَ قد ارتجّ بأهله وأنا أسمعهم — يقولون — : هو ذاك ، أبصِروه ، هذا إمام المسلمين مقبلاً ، فبدَرَ إليّ صاحب الفندق مسرعاً فقال لي : يا أبا عبد الرحمن، هذا أبو عبد الله أحمد بن حنبل إمام المسلمين مقبلاً إليك عائداً لك .

فدخل فجلس عند رأسي وقد احتَشَى البيتُ من أصحابه فلم يسعهم ، حتى صارَتْ فرقةٌ منهم في الدار وقوفاً وأقلامُهم بأيديهم ، فما زادني على هذه الكلمات فقال لي : يا أبا عبد الرحمن أبشِرْ بثواب الله ، أيامُ الصحة لا سقَم فيها ، وأيامُ السقم لا صحة فيها ، أعلاكَ الله إلى العافية، ومَسَحَ عنك بيمينه الشافية ، فرأيت الأقلام تكتب لفظه .

ثم خرج عني ، فأتاني أهل الفندق يَتلطَّفون بي ، ويخدمونني ديانةً وحِسبة، فواحدٌ يأتي بفراش ، وآخر بلحاف وبأطايب من الأغذية ، وكانوا في تمريضي أكثرَ من تمريض أهلي لو كنت بينَ أظهرهم ، لعيادة الرجل الصالح لي .

وتوفي بقي بن مخلد سنة ٢٧٦ بالأندلس رحمه الله تعالى » .

٢١ — وقال الحافظ الإمام ابن أبي حاتم الرازي في كتابه « تقدمة الجرح والتعديل » في ترجمة والده (الإمام أبي حاتم محمدبن إدريس الرازي) المولود سنة ١٩٥ والمتوفى سنة ٢٧٧ ، عند ذكر رحلته في طلب العلم ص ٣٥٩ ، قال ابن أبي حاتم : « سمعت أبي يقول : أوّلَ ما خرجتُ في طلب الحديث أقمتُ سبع سنين ، أحصيتُ ما مشيتُ على قدميّ زيادةً على ألفِ فرسخ [1] ، لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخٍ تركتُه .

وأما ما كنتُ سِرتُ أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أُحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة ، وخرجتُ من البحر من قُرْب مدينة سَلاَ — وذلك في المغرب الأقصى — إلى مصر ماشياً ، ومن مصر إلى الرملة ماشياً ، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طَبَريّة، ومن طبريّة إلى دمشق ، ومن دمشق إلى حمص ، ومن حمص إلى أنطاكية ، ومن أنطاكية إلى طَرَسُوس .

ثم رجعتُ من طَرَسُوس إلى حمص ، وكان بقي عليّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته ، ثم خرجتُ من حمص إلى بَيْسان ، ومن بيسان إلى الرَّقّة، ومن الرَّقة ركبتُ الفُرات إلى بغداد، وخرجتُ قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ، ومن النيل إلى الكوفة ، كلٌّ ذلك ماشياً ، كلٌّ ذلك ماشياً ، هذا في سفري الأوّل وأنا ابنُ عشرين سنة ، أجولُ سبع سنين ، خرجتُ من الري سنة ٢١٣ في شهر رمضان، ورجعتُ سنة ٢٢١ .

وخرجتُ المرة الثانية سنةَ اثنتين وأربعين ،ورجعتُ سنة خمس وأربعين ، أقمت ثلاث سنين ، — وكانت سِنّي في هذه الرحلة ٤٧ سنة — .

---

(١) الفرسخ بمشي القدم : ساعة ونصف ،وهو يزيد على خمسة كيلومترات .

٢٢ — وجاء في « تهذيب التهذيب » ١١ : ٣٨٧ في ترجمة الحافظ الجوّال (يعقوب بن سفيان الفارسي) المتوفى سنة ٢٧٧ رحمه الله تعالى : « قال أبو عبد الرحمن النهاوندي : سمعت يعقوب بن سفيان يقول : كتبتُ عن ألف شيخ وكَسْر ، كلُّهم ثقات . وقال ابن حمزة : قال لي يعقوب بن سفيان : أقمتُ في الرحلة ثلاثين سنة » .

٢٣ — وجاء في « تذكرة الحفاظ » للحافظ الذهبي ٢ : ٦٢٧ ، في ترجمة (الفضل الشَّعْراني) : « الحافظُ الإمام الجَوَّال ، الفضل بن محمد بن المسيب البيهقي الشَّعْراني المتوفى سنة ٢٨٢ ، قال ابن المؤمّل : كنا نقول : ما بقي بلَدٌ لم يدخله الفضل الشَّعْرانيُّ في طلب الحديث إلا الأندلس » .

٢٤ — وجاء في « تذكرة الحفاظ » أيضاً ٢ : ٧٨٩ ، في ترجمة (الحافظ الأَرغِياني) : « هو الحافظ البارع الجوَّال الزاهد القدوة ، محمد بن المسيّب بن إسحاق الأرغياني ، المتوفى سنة ٣١٢ ، قال الإمام الحاكم أبو عبد الله : كان من العُبّاد المجتهدين ، سمعت غيرَ واحد من مشايخنا يذكرون أنه قال : ما أعلَمُ مِنْبَراً من منابر الإسلام ، بقي عليَّ لم أدخله لسماع الحديث » .

٢٥ — وجاء في « تذكرة الحفاظ » أيضاً ٣ : ٨٥٨ ، في ترجمة الإمام محدِّث الشام (أبي الحسن خَيْثَمة بن سُليمان بن حَيْدرة القرشي الطرابلسي) المولود سنة ٢٥٠ ، والمتوفى سنة ٣٤٣ ، : « قال ابن أبي كامل : سمعت خيثمة يقول :

ركبتُ البحر ، وقصدتُ جَبْلَة ، لأسمعَ من يوسف بن بحر ، ثم خرجت إلى أنطاكية ، فلقينا مركبٌ فقاتلناهم ، ثم تَسلّم مركبَنا قومٌ من مُقدَّمه ، فأخذوني ثم ضربوني ، وكتبوا أسماءنا ، فقالوا : ما اسمك ؟ قلت : خيثمة ، فقال : اكتب حِمار ابن حِمار !

ولما ضُرِبتُ سَكِرتُ — يعني أصابَتْه غَشية — ونِمتُ ، فرأيت كأني أنظر إلى الجنة ، وعلى بابها جماعة من الحُور العِين ، فقالت إحداهن : يـا

شَقيّ أيش فاتَك ؟ ! قالت أخرى : أَيش فاتَه ؟ قالت : لو قُتِلَ كان في الجنة مع الحُور العين ، فقالت لها : لأن يَرزقه الله الشهادة في عِزٍّ من الإسلام وذلٍّ من الشِّرك خيرٌ له ، ثم انتَبهتُ .

قال : ورأيتُ كأن من يقول لي : اقرأ (سُورةَ براءة) ، فقرأتُ إلى قوله تعالى : ﴿ فَسِيحُوا في الأرض أربعةَ أشهر ﴾ . قال : فعددتُ من ليلة الرؤيا أربعةَ أشهر ، ففَكَّ الله أَسْرِي » .

٢٦ — وجاء في « تذكرة الحفاظ » أيضاً ٣ : ٩٧٣ ، في ترجمة (ابن المُقرىء) محمد بن إبراهيم الأصبهاني المتوفى سنة ٣٨١ « الإمامُ الرحّال الحافظ الثقة ، قال أبو طاهر أحمد بن محمود : سمعتُ ابنَ المقرى يقول : طُفتُ الشرقَ والغربَ أربع مرات » .

ثم قال الحافظ الذهبي : « ورَوى اثنان عن ابن المقرىء أنه قال : مَشيتُ بسبب نُسخةِ (المفضَّل بن فَضالة المصري) سبعين مرحلة[1] ، ولو عُرِضَت على خبّازٍ برغيفٍ لم يقبلها ! ودخلتُ بيتَ المقدس عشرَ مرات » . ولا تنس أنَّ بلده أصبهان .

٢٧ — وقال الحافظ الذهبي أيضاً في « تذكرة الحفاظ » في ترجمة الحافظ أبي عبد الله بن مَنْدَهْ (محمد بن إسحاق) ٣: ١٠٣٢ « وُلِدَ أبو عبد الله سنة ٣١٠ ، وتوفي سنة ٣٩٥ ، وعِدَّةُ شيوخه الذين سَمِعَ منهم وأخَذَ عنهم : ألفٌ وسَبْعُ مئةِ شيخ [1] .

(١) يُطلق المحدِّثون اسمَ (النسخة) على مجموعة من الأحاديث يرويها الشيخ ، وتُعرَف وتَشتَهِرُ بروايته .

(٢) قال الحافظ العراقي في « شرح ألفيته » ٢ : ٢٣٣ في شرح أبيات (آداب طالب الحديث): « وقد وُصِفَ بالإكثار من الشيوخ : سفيان الثوري ، وأبو داود الطيالسي ، ويونس ابن محمد المؤدِّب ، ومحمد بن يونس الكُدَيْمي ، وأبو عبدالله بن منده ، والقاسم بن داود البغدادي ، روينا عنه قال : كتبتُ عن ستةِ آلاف شيخ » .

ولما رجع من الرحلة الطويلة ، كانت كتبُه عِدَّةَ أحمال ، حتى قيل : إنها كانت أربعين حِمْلاً ، وما بلَغَنا أنَّ أحداً من هذه الأمة سَمِعَ ما سَمِعَ ، ولا جَمَعَ ما جَمَعَ . وكان ختامَ الرحّالين وفَرْدَ المكثرين ، مع الحفظ والمعرفة والصدق وكثرة التصانيف . قال جعفر المستغفري : سألتُه كم تكون سَمَاعاتُ الشيخ ؟ قال : تكون خمسةَ آلافِ مَنٍّ . والمَنُّ يجيء عشرةَ أجزاءٍ كبار .

وأوّلُ ارتحاله كان قبل سنة ٣٣٠ إلى نيسابور ، قال الحاكم : التقينا ببُخارى سنة ٣٦١ وقد زاد زيادة ظاهرة ، ثم جاءنا إلى نيسابور سنة خمس وسبعين ذاهباً إلى وطنه . — فرَحلَ وعُمرُه عشرون سنة ، ورجع وعمره خمس وستون سنة ، وكانت رحلته ٤٥ سنة — .

قال ابن مَنْدَه : طُفتُ الشرقَ والغربَ مرتين . وقال أبو زكريا ابن مَنْدَه : كنتُ مع عمي عُبَيد الله في طريق نيسابور ، فلما بلَغْنا بئر مجة ، حَكَى لي عمي قال : كنتُ قافلاً عن خراسان مع أبي ، فلما وصلنا إلى هنا ، إذْ نحن بأربعين وِقْراً من الأحمال ، فظننا أن ذلك ثياب ، فاذا خيمة صغيرة فيها شيخ ، وإذا هو والدُك !

فسأله بعضنا : ما هذه الأحمال ؟ فقال : هذا متاع قَلَّ من يَرغَبُ فيه في هذا الزمان ، هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكَرَ لي عمي بعد ذلك فقال : كنت قافلاً عن خراسان ، ومعي عِشْرون وِقْراً من الكتب ، فنزلت فيها عند البئر ، اقتداءً بالوالد » .

٢٨ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ١١١٩ ، في ترجمة (أبي نصر السجزي) : « هو الحافظُ الإمامُ علَمُ السُّنّة ، عُبَيد الله بن سعيد بن حاتم ، أبو نصر السِّجْزي المتوفى سنة ٤٤٤ ، من أحفظ أهل زمانه للحديث ، طَوَّفَ الآفاق في طلب الحديث .

قال الحافظ أبو إسحاق الحبّال : كنتُ يوماً عند أبي نصر السِّجزي ،

فدُقَّ الباب ، فقُمتُ ففتحتُه ، فدخلت امرأة وأخرجَتْ كيساً فيه ألفُ دينار ، فوضعَتْه بين يدي الشيخ وقالت : أنفِقْها كما ترى . قال ما المقصود ؟ قالت : تتزوَّجُني ، ولا حاجة لي في الزواج ولكن لأخدمك ، فأمَرَها بأخذ الكيس وأن تنصرف .

فلما انصرفَتْ قال : خرجتُ من سِجِسْتان بِنيّة طلب العلم ، ومتى تزوَّجتُ سقَطَ عني هذا الاسم ، وما أُوثِرُ على ثواب طلب العلم شيئاً » .

٢٩ — وهذا الحافظ الفقيه أبو سَعْد السمّان الرازي ، المتوفى سنة ٤٤٥ ، أحَدُ المحدِّثين النسّابين الفقهاء القراء العلماء الأفذاذ ، طاف الدنيا من مشرقها إلى مغربها على قدميه ، فكان له من الشيوخ ٣٦٠٠ شيخ ، رحمه الله تعالى .

قال الحافظ القرشي في « الجواهر المضية في طبقات الحنفية » ١ : ١٥٦ في ترجمته : « أبو سَعْد السمّان إسماعيل بن علي بن الحسين بن زَنْجُويه الرازي ، الحافظ الزاهد المعتزلي ، شيخ العَدْلِيّة — أي المعتزلة — وعالمهم ، وفقيههم ومتكلمهم ومحدثهم ، كان إماماً بلا مدافعة في القراءات والحديث ومعرفة الرجال والأنساب والفرائض والحساب والشروط والمقدَّرات .

وكان إماماً في فقه أبي حنيفة رضي الله عنه وأصحابه ، وفي معرفة الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما ، وفي فقه الزيدية ، وفي الكلام . وكان قد حجَّ وزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ودخل العراق — وبلدُه الري في خراسان من أقصى الشرق — ، وطاف الشام والحجاز وبلاد المغرب ، وشاهد الرجال والشيوخ ، وقرأ على ثلاثة آلاف وست مئة رجل من شيوخ زمانه ، وقَصَد أصبهان لطلب الحديث في آخر عمره ، وكان يقول : من لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام .

وكان يقال في مدحه : إنه ما شاهد مِثلَ نفسه ، وكان مع هذه الخصال

الحميدة زاهداً ورعاً قوّاماً ، مجتهداً صوّاماً ، قانعاً راضياً ، أتى عليه أربعٌ وسبعون سنة لم يُدخِل إصبعَه في قصعة إنسان ، ولم يكن لأحدٍ عليه مِنّةٌ ولا يدٌ في حَضَرِه ولا سَفَرِه .

خلّفَ ما جمعه طولَ عمره من الكتب وقفاً على المسلمين ، كان تاريخَ الزمان ، وبقيةَ السلفِ والخلف ، وصنّف كتباً كثيرة ، ومات ولم يتأهل قط ، ومَضَى لسبيله وهو يتبسّم كالغائب يَقدَم على أهله ، وكالمملوك يَرجع إلى مالكه ، مات بالرّيّ — مسقطِ رأسه — سنة ٤٤٥ رحمه الله تعالى » .

٣٠ — وقال القاضي المؤرخ ابن خلّكان في كتابه « وفَيَات الأعيان » ٢ : ٢٣٣ في ترجمة أبي زكريا (يحيى بن علي التبريزي) المعروف بالخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ ببغداد ، قال : « كان له معرفة تامة بالأدب من النحو واللغة وغيرهما ، قرأ على أبي العلاء المعري وغيره من أهل الأدب .

وكان سبب توجهه إلى أبي العلاء المعري ، أنه حصلت له نسخة من كتاب « التهذيب » في اللغة تأليف أبي منصور الأزهري ، في عدة مجلدات لطاف ، وأراد تحقيق ما فيها وأخْذَها عن رجل عالم باللغة ، فدُلَّ على المعري ، فجعل الكتاب في مخلاة وحَمَلَها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً ، فنَفَذَ العرق من ظهره إليها ، فأثّر فيها البلل ، وهي ببعض الوقوف ببغداد ، وإذا رآها من لا يعرف صورةَ الحال فيها ظَنَّ أنها غريقة ، وليس بها سوى عَرَقِ الخطيب التبريزي » .

٣١ — ورحم الله الإمام أبا الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ ، إذ يَصف انهماكَه في طلب العلم ، وإنفاقَه شبابَه في تحصيله ، ويَذكُرُ ملاذَّ ذلك الانهماك والإنفاق ، في زمن الاكتهال والاكتمال ، فيقول في كتابه « صيد الخاطر » ٢ : ٣٢٩ :

« من أنفق عَصْرَ الشباب في العلم ، فانه في زمن الشيخوخة يَحمَدُ

جَنْيَ ما غَرَس ، ويَلتذّ بتصنيف ما جَمَع ، ولا يَرى ما يَفقِدُ من لذّات البدن شيئاً بالإضافة إلى ما يَنالُه من لذّات العلم ، هذا مع وجود لذّاته في الطلب الذي كان تأمّلَ به إدراكَ المطلوب ، وربما كانت تلك الأعمالُ أطيبَ مما نِيلَ منها ، كما قال الشاعر :

أهتزُّ عند تَمنّي وَصْلِها طَرَباً ... ورُبَّ أمنيّةٍ أحلى من الظّفَرِ

ولقد تأمّلتُ نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا ، وأنفقتُ زمَن الصبوة والشباب في طلب العلم ، فرأيتُني لم يَفُتْني مما نالوه إلا ما لو حَصَل لي ندمتُ عليه ، ثم تأمّلتُ حالي فاذا عيشي في الدنيا أجودُ من عيشهم ، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم ، وما نِلتُه من معرفة العلم لا يُقَوَّم .

فقال لي إبليس : ونَسِيتَ تعبَك وسهرَك ؟ ! فقلت له : أيها الجاهل ، تقطيعُ الأيدي لا وَقْعَ له — أي لا يُذكَر وليس بشيء — عند رؤية (يوسف) ، وما طالَتْ طريقٌ أدّتْ إلى صديق :

جَزَى اللهُ المَسِيرَ إليه خيراً ... وإن تَرَكَ المَطَايا كالمَزَادِ »[1] .

٣٢ — وسيأتي في الخبر الجامع الثاني خبر (محمد ابن طاهر المقدسي) في ص ١١٤ أنه بال الدّمَ في طلب الحديث مرتين ، إذ كان يقطع المسافات الطوالَ في الهواجر ، فناله من ذلك ما ناله ! ولا شك أن صبرهم على هذه المشاقّ الفادحة أعقبهم الله به كريمَ الأجر وجميلَ الذكر .

٣٣ — وحَسْبُكَ أن تعلم أنّ هؤلاء الذين أسلفت لك الحديث عنهم ، قد اشتَهى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور — وهو مليكُ دنيا الإسلام في

(١) المطايا جمع مطية ، والمراد بها هنا : الناقةُ التي أضناها السير ، حتى تركتها جلْداً على عظم من شدة تَعَبِها وضَنَاها ، فصارت كالمزادة ، ويريد بها هنا القِربة من جلد إذا كانت خالية من الماء ، فانها تكون لا قوة فيها ولا قِوام لها .

عصره – أن يكون واحداً منهم ، وهم العلماء الذين حَفِيَتْ أقدامُهم من السَّيْر في طلب العلم ، وذَبَلَتْ أجسامُهم من الصبر على مَشَاقِّ الأسفار فيه ، قال الحافظ السيوطي في «تاريخ الخلفاء» في ترجمة أبي جعفر المنصور ص١٧٧ :

« أخرج ابن عساكر ، عن محمد بن سَلاَّم الجُمَحي قال : قيل للمنصور : هل بقي من لذَّات الدنيا شيء لم تَنَله ؟ قال بَقِيَتْ خَصْلَة : أن أَقعُدَ في مِصْطَبة ، وحَوْلي أصحاب الحديث ، يقول المستملي : مَن ذكرتَ رَحِمَكَ الله ؟ – يعني : فأقول : حدَّثنا فلان ، قال : حدثنا فلان ، قال : حدثنا فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – ، قال : فغَدَا – أي بكَّر – عليه النُّدَمَاء وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر ، فقال لهم : لستُم بهم ! – أي لستم بأصحاب الحديث الذين أعنيهم – إنما هم الدَّنِسَةُ ثيابُهم[1] ، المُشَقَّقَةُ أرجلُهم ، الطويلة شعورهم ، بُرُدُ الآفاق – أي جَوَّابو البُلدان والمسافات البعيدة – ونَقَلَةُ الحديث » . انتهى .

وهم الذين قال أبو عبد الله الحاكم النيسابوري فيهم ، في كتابه « معرفة علوم الحديث » ص ٢ – ٣ وهو يَذكر فضلَ أصحاب الحديث وطُلاَّبه :

« هم قوم سَلَكوا مَحَجَّةَ الصالحين ، واتَّبعوا آثارَ السلفِ من الماضين ، ودَمَغوا أهلَ البِدَع والمخالِفين ، بسُنَن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أجمعين .

آثَروا قَطْعَ المَفاوِزِ والقِفار ، على التنعُّم في الدِّمَن والأوطار ، وتنعَّموا بالبُؤس في الأسفار ، مع مُساكَنة أهل العلم والأخبار ، وقَنَعُوا عند جَمْع الأحاديث والآثار ، بوجود الكِسَر والأطمار .

جعلُوا المساجدَ بُيُوتَهم ، وأساطينَها تَكاياهم [2] ، وبَواريَها

(1) وذلك لكثرة أسفارهم ، لا يفرغون لغَسْلها فتبقى دَنِسةً بسبب ذلك .

(2) الأساطين جمع أُسطوانة ، وهي سارية المسجد التي يرتكز عليها سقفه . وتكاياهم ، يقصد بها : متكآتهم التي يُسندون ظهورهم وجنوبهم عليها .

فُرُشَهم [1] ، نَبَذوا الدنيا بأسْرِها وراءهم ، وجعلوا غِذاءَهم الكتابة ، وسَمَرَهم المُعارَضة [2] ، واستِرواحَهم المذاكرة ، وخَلُوقَهم المِداد ، ونومَهم السُّهاد ، واصطِلاءَهم الضياء ، وتوسُّدَهم الحَصَى .

فالشدائدُ مع وجود الأسانيد العالية عندهم رَخاء ، ووجود الرخاء مع فَقْد ما طلبوه عندهم بُؤس ! فعُقولُهم بلَذاذَة السُّنَّة غامرة ، وقلوبُهم بالرضاءِ في الأحوال عامرة ، تعلُّمُ السُّنَن سُرورُهم ، ومَجالسُ العلم حُبورُهم ، وأهلُ السنة قاطبةً إخوانُهم ، وأهلُ الإلحادِ والبِدَعِ بأسْرِها أعداؤهم » .

وأكتفي بهذه الأخبار في هذا الجانب ، ثم أنتقل إلى :

الجانب الثاني

في أخبارهم في هجر النوم والراحة والدعة وسائر اللذاذات .

وأستهله بما جاء عن حَبْر الأمة وإمام الأئمة ، الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنه .

٣٤ – قال الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » ٨ : ٢٩٨ في ترجمة الإمام (ابن عباس) : « قال البيهقي – وساق ابن كثير سنده إلى عكرمة – قال : قال ابن عباس : لما قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، قلت لرجل من الأنصار : هَلُمَّ فلنسأل أصحابَ رسول الله فإنهم اليوم كثير ، فقال : يا عجباً لك يا ابن عباس ! أترى الناسَ يفتقرون إليك وفي الناس من أصحابِ

(1) البواري جمع بُوريّة وباريّة ، وهي الحصيرة المنسوجة التي تُبسَط ويُجلَس عليها .

(2) أي مقابلة الكتاب الذي كتبوه بالكتاب الذي سمعوه أو نقلوا منه .

رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن فيهم ؟ (١) .

قال : فترَك ذاك ، وأقبلتُ أنا أسأل أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان لَيَبلغُني الحديثُ عن الرجل فآتي بابَه وهو قائل، فأتوسّدُ ردائي على بابه يَسفِي الريح عليّ من التراب ، فيَخرج فيراني فيقول : يا ابنَ عم رسول الله ما جاء بك ؟ هلاّ أرسلت إلي فآتيك ؟ فأقول : لا ، أنا أحقُّ أن آتيك ، قال : فأسأله عن الحديث .

قال : فعاش هذا الرجل الأنصاري حتى رآني، وقد اجتمعَ حولي الناسُ يسألوني ، فيقول : هذا الفتى كان أعقلَ مني .

٣٥ — وقال محمد بن عبد الله الأنصاري : حدّثنا محمد بن عمرو بن علقمة ، حدّثنا أبو سلمة ، عن ابن عباس قال : وجدتُ عامّة علم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا الحيّ من الأنصار ، إن كنتُ لأَقيلُ بباب أحدهم ولو شئتُ أن يُؤذَنَ لي عليه لأُذِنَ لي ، ولكن أبتغي بذلك طِيبَ نفسه » . ورواه أبو خيثمة النسائي في « كتاب العلم » ص ١٤١ .

٣٦ — وقال الحافظ الذهبي في « تاريخ الإسلام » ٤ : ٣٢ ، في ترجمة التابعي الجليل (عُروة بن الزبير) المتوفى سنة ٩٣ رحمه الله تعالى : « قال عروة : لقد كان يَبلغني عن الرجل من المهاجرين الحديث ، فآتيه فأجِدُه قد قالَ — أي نام أو استراح وقتَ القيلولة في منزله — ، فأجلسُ على بابه ، فأسأله عنه ، يعني إذا خرج » .

٣٧ — وروَى الدارمي في « سننه » ١ : ١٠٥ ، عن التابعي الجليل (سعيد ابن جُبَير) المتوفى سنة ٩٥ رحمه الله تعالى : « قال : كنتُ أسيرُ مع ابن عباس

(١) يعني : في الناس اليوم كثرةٌ من أصحاب رسول الله الذين عاشروه وسمعوا منه ، فلا يحتاج الناسُ إلى مثلك مع وجود أولئك الأصحاب ، فطلبُك للعلم لا ينتفع به الناس ، لاستغنائهم عنك بهم .

في طريق مكة ليلاً ، وكان يحدثني بالحديث، فأكتبُه في واسطةِ الرَّحْل، حتى أصبح فأكتبه » .

٣٨ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ١ : ٢٥٣ ، و « ميزان الاعتدال » ١ : ٢٤٠ ، في ترجمة العالم العابد (إسماعيل بن عيّاش الحمصي) المولود سنة ١٠٦ ، والمتوفى سنة ١٨١ رحمه الله تعالى : « قال أبو اليَمان — هو عامرُ بن عبد الله الحمصي — : كان إسماعيلُ جارَنا ، منزلُه إلى جنب منزلي ، فكان يُحيي الليل ، وربما قرأ ثم قطَع ثم رجَع .

فسألته يوماً عن ذلك ؟ فقال : وما سؤالك ؟ قلتُ : أريد أن أعرف ، قال إني أُصلّي فأقرأ ، فأذكُرُ الحديث في الباب من الأبواب التي أخرجتُها ، فأقطَعُ الصلاة — أي أُمسِكُ عنها — فأكتبُه ، ثم أرجعُ إلى صلاتي » .

٣٩ — وقال الحافظ الذهبي أيضاً في « تذكرة الحفاظ » ١ : ٢٧٧ ، في ترجمة الإمام عبد الله بن المبارك ، المولود سنة ١١٨ ، والمتوفى سنة ١٨١ رحمه الله تعالى : « قال علي بن الحسن بن شقيق : قُمتُ مع عبد الله بن المبارك في ليلة باردة ، ليَخرج من المسجد ، فذاكرني عند الباب بحديث وذاكرتُه، فما زال يذاكرني حتى جاء المؤذّن فأذّن للفجر » .

٤٠ — وقال القاضي عياض في « ترتيب المدارك » في ترجمة (عبد الرحمن بن قاسم العُتَقي المصري) ٣ : ٢٥٠ أحدِ أصحاب مالك والليث وغيرهما ، المولود سنة ١٣٢ والمتوفى بمصر سنة ١٩١ رحمه الله تعالى : « قال ابن القاسم : كنتُ آتي مالكاً غَلَساً فأسأله عن مسألتين ، ثلاثة ، أربعة ، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراحَ صدر ، فكنت آتي كلَّ سحَر .

فتوسّدتُ مرّةً عتبتَه ، فغلبتني عيني فنمت ، وخرجَ مالك إلى المسجد ولم أشعر به ، فركضتني جارية سوداء له برجلها ، وقالت لي : إن مولاك قد خرج ، ليس يَغفُلُ كما تَغفُلُ أنت ، اليوم له تسع وأربعون سنة ، قلّما صلى

الصبحَ إلا بوضوءِ العتَمَةِ — ظنّت السوداء أنه مولاه من كثرةِ اختلافِه إليه — .

قال ابن القاسم : وأنختُ بباب مالك سبع عشرة سنة ، ما بعتُ فيها ولا اشتريتُ شيئاً ، قال : فبينما أنا عنده ، إذ أقبل حاجُّ مصر ، فإذا شابٌّ متلثّم دخل علينا ، فسلّم على مالك ، فقال : أفيكم ابنُ القاسم ؟ فأُشيرَ إليّ ، فأقبل يُقَبِّلُ عينيَّ ، ووجدتُ منه ريحاً طيبة ، فإذا هي رائحةُ الوَلَد ، وإذا هو ابني ، وكان ابنُ القاسم ترك أمه حاملاً به ، وكانت ابنةَ عمه ، وقد خيّرها عند سفره لطول إقامته ، فاختارت البقاء » .

٤١ — وروى الحافظ أبو خيثمة النسائي شيخ البخاري ومسلم في « كتاب العلم » ص ١٣٥ « عن الفُضَيل بن عياض قال : كنا نجلس أنا وابنُ شُبْرُمة والحارث العُكْلي والمغيرة والقعقاع بن يزيد بالليل ، نتذاكر الفقه ، فربما لم نقم حتى نَسمع النداءَ لصلاة الفجر » .

٤٢ — وجاء في « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي ص ٦١ ، و « طبقات الشافعية الكبرى » للتاج السبكي ٢ : ٢٨ من طبعة البابي الحلبي ، في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل : « قال قتيبة بن سعيد : كان وكيع إذا صلّى العَتَمَة ينصرف معَهُ أحمد بن حنبل ، فيقف على الباب فيذاكره وكيع . — ووكيع من شيوخ أحمد — .

فأخَذَ وكيعٌ ليلةً بعِضَادَتَيْ الباب ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، أُريد أن أُلقيَ عليك حديثَ سفيان ، قال : هاتِ ، قال : تحفظ عن سفيان ، عن سَلَمة بن كُهَيْل كذا وكذا ؟ قال : نعم ، حدثنا يحي . . . ، فيقول — أي وكيع تَحفظُ عن — سلمة : كذا وكذا ، فيقول : حدثنا عبد الرحمن . . . ، فيقول — أي وكيع — : وعن سفيان عن سَلَمة كذا وكذا ، فيقول : أنت حدثتنا ، حتى يَفرُغ من سلمة .

ثم يقول أحمد : فتحفظ عن سَلَمة كذا وكذا ؟ فيقول وكيع : لا ، فلا يزال يُلقي عليه ويقول وكيعٌ : لا ، ثم يأخُذُ في حديث شيخ شيخ .

قال : فلم يزل قائماً حتى جاءت الجارية ، فقالت : قد طَلَعَ الكوكب ، أو قالت : الزُّهَرَة » .

٤٣ — وقال الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » ١١ : ٢٥ في ترجمة الإمام (البخاري) أمير المؤمنين في الحديث ، وصاحب الفضل على الناس ، إلى يومَ الناس : « رَحَلَ إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان التي أمكنَتْه الرحلةُ إليها ، وكتَبَ عن أكثر من ألف شيخ ، قال الفِرَبْرِي : سَمِعَ « الصحيحَ » من البخاري معي نحوٌ من سبعين ألفاً ، لم يبق منهم أحد غيري » .

ثم قال الحافظ ابن كثير : « وقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه ، فيُوقِدُ السراجَ ويكتب الفائدة تَمُرُّ بخاطره ، ثم يُطفيءُ سِراجَه ، ثم يقوم مرةً أخرى وأخرى ، حتى كان يتعدَّدُ منه ذلك قريباً من عشرين مرة » .

٤٤ — وجاء في « تهذيب الأسماء واللغات » للإمام النووي ١ : ٧٥ ، و « طبقات الشافعية » للتاج السبكي ٢ : ٢٢٠ و ٢٢٦ ، في ترجمة الإمام البخاري « قال محمد بن يوسف : كنت عند محمد بن إسماعيل — البخاري — بمنزله ذاتَ ليلة ، فأحصَيتُ عليه أنه قام وأَسرَج — ليَستذكر أشياءَ يُعلِّقُها في ليلِه — ثمانَ عشرَة مرة .

وقال محمد بن أبي حاتم ورَّاقُ البخاري : كان أبو عبد الله — البخاري — إذا كنتُ معه في سفر ، يَجمعنا بيتٌ واحد إلا في القيظ أحياناً ، فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمسَ عشرة مرة إلى عشرين مرة ، في كل ذلك يأخذ القَدَّاحة ، فيُوري ناراً ويُسرِج ، ثم يُخْرِج أحاديث فيُعلِّمُ عليها ، ثم يضع رأسه ، وكان يصلي وقتَ السحر ثلاث عشرة ركعة ، وكان لا يُوقظني في كل ما يقوم ، فقلت له : إنك تَحمِل على نفسك في كل هذا ولا توقظني ، قال : أنت شابٌ ولا أحب أن أُفسِدَ عليك نومَك .

ورأيته استلقى على قَفاه يوماً ونحن بفِرَبْر ، في تصنيف « كتاب التفسير »

وكان أتعبَ نفسَه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث ، فقلت له : يا أبا عبد الله سمعتك تقول : إني ما أتيتُ شيئاً بغير علم قط منذ عقلت ، فأيُّ علم في هذا الاستلقاء ؟

قال : أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم ، وهذا ثغر من الثغور ، خشيتُ أن يحدث حدَثٌ من أمر العدوّ ، فأحببتُ أن أستريح ، وآخذَ أهبةً لذلك ، فإن غافَصَنا العدوّ — أي فاجأنا على غِرَّة — ، كان بنا حَرَاك — أي قوّة — .

وكان يركبُ إلى الرَّمْي ، فما أعلم أني رأيته في طُول ما صحبته أخطأ سَهْمُه الهدفَ إلا مرَّتين ، وكان لا يُسبَق » .

٤٥ — وقال شيخنا الإمام الكوثري رحمه الله تعالى في كتابه « بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني » ص ١٥ :

« كان أسَدُ بن الفُرات ، — قاضي القيروان وتلميذُ الإمام مالك ومُدوِّن — مذهبه ، وأحدُ القادة الفاتحين ، فتحَ صِقِلِّيَّةَ واستُشهدَ بها سنة ٢١٣ — كان قد خرج من القيروان إلى الشرق سنة ١٧٢ ، فسمع « الموطأ » على مالك بالمدينة ، ثم رحل إلى العراق ، فسَمِعَ من أصحاب أبي حنيفة وتفقّه عليهم ، وكان أكثَرُ اختلافه إلى محمد بن الحسن الشيباني ، ولما حضَرَ عنده قال له : إني غريب قليلُ النفقة ، والسماعُ منك نَزْر ، والطلبةُ عندك كثير ، فما حيلتي ؟

فقال له محمد بن الحسن : اسمع مع العراقيِّين بالنهار ، وقد جعلتُ لك الليلَ وحدَك ، فتَبيتُ عندي وأُسمعك ، قال أسد : وكنتُ أبيتُ عنده ويَنزلُ إليّ ، ويجعلُ بين يديه قدَحاً فيه الماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل ونعَستُ ، ملأ يَدَه ونضَحَ وجهي بالماء فأنتبه ، فكان ذلك دأبَه ودأبي ، حتى أتيتُ على ما أريدُ من السماع عليه .

وكان محمد بن الحسن يتعهده بالنفقة حين علم أن نفقته نَفِدَتْ ، وأعطاه مرةً ثمانين ديناراً حين رآه يشرب من ماء السبيل ، وأمَدَّه بالنفقة حين أراد

الانصراف من العراق » . انتهى بتصرف يسير .

٤٦ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ٩١٢ و ٩١٥ في ترجمة (الإمام الطبراني) : « هو الحافظ الإمام العلامة الحجة بقية الحفاظ ، أبو القاسم سليمان بن أحمد اللَّخْمي الشامي الطبراني مسنِدُ الدنيا ، وُلِدَ سنة ستين ومئتين ، ومات سنة ستين وثلاث مئة ، فاستكمل مئةَ عام وعشرة أشهر ، وحديثه قد ملأ البلاد ، زادَتْ مؤلَّفاته عن ٧٥ مؤلفاً ، قال الذكواني : سُئل الطبراني عن كثرة حديثه فقال : كنتُ أنامُ على البَوَاري — أي الحُصُر — ثلاثين سنة ! » .

٤٧ — وحكى الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » في ترجمة (عبد الرحمن ابن أبي حاتم الرازي) ٣ : ٨٣٠ صاحب كتاب « الجرح والتعديل » و« التفسير » المعروف باسم « تفسير ابن أبي حاتم » قال : « قال ابن أبي حاتم : رحَلَ بي أبي — من الريّ في خراسان — سنة خمس وخمسين ومئتين ، وما احتلمتُ بعد ، فلما بلغنا ذا الحُلَيفة — ميقات أهل المدينة المنورة — احتلمتُ ، فسُرَّ أبي حيث أدركتُ حجّةَ الإسلام » .

٤٨ — ثم قال الذهبي : « قال علي بن أحمد الخوارزمي : قال ابنُ أبي حاتم : كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرَقةً ، نهارَنا ندُورُ على الشيوخ ، وبالليل ننسخُ ونقابل ، فأتينا يوماً أنا ورفيقٌ لي : شيخاً فقالوا : هو عليل ، فرأيت سمكةً أعجبتنا فاشتريناها ، فلما صرنا إلى البيت حضر وقتُ مجلس بعض الشيوخ فمضينا ، فلم تزل السمكة ثلاثة أيام ، وكادت أن تُنتِن فأكلناها نِيئةً لم نتفرغ نشويها ، ثم قال : لا يُستطاع العلم براحة الجَسَد ! » .

٤٩ — وقال القاضي ابن خلّكان في « وفَيَات الأعيان » ١ : ١٥٢ ، في ترجمة الرئيس أبي علي بن سينا (الحسين بن عبد الله بن سينا) ، العالم المتفنن الفيلسوف والطبيب المشهور ، المولود سنة ٣٧٠ ، والمتوفى سنة ٤٢٨ غفر الله لنا وله :

« ولما بلغ عشر سنين من عمره ، كان قد أتقن القرآن العزيز والأدب ، وحفظ أشياء من أصول الدين والحساب والجبر والمقابلة ، ثم أحكم علم المنطق وأقْليدِس والمِجَسْطِي ، وفاق شيخه : (الحكيم أبا عبد الله الناتلي) أضعافاً كثيرة وكان مع ذلك يختلف في الفقه إلى إسماعيل الزاهد ، واشتغل بتحصيل العلوم كالطبيعي والإلهي ، وفتح الله عليه أبواب العلوم .

ثم رغب بعد ذلك في علم الطب ، وتأمل الكتب المصنفة فيه ، وعالج تأدباً — أي تعلماً وتعليماً — لا تكسُّباً ، وعَلِمَ الطبَّ حتى فاق فيه الأوائل والأواخر في أقل مدة ، وأصبح فيه عديم النظير فقيدَ المِثْل ، واختلَفَ إليه فضلاء هذا الفن وكبراؤه ، يقرؤون عليه أنواعه والمعالجاتِ المقتبسة من التجربة ، وسِنُّه إذ ذاك نحوَ ستَّ عشرةَ سنة !

وفي مدة اشتغاله لم ينم ليلةً واحدةً بكمالها ، ولا اشتغل في النهار بسوى المطالعة ، وكان إذا أشكلت عليه مسألة توضَّأ وقصد المسجد الجامع ، وصلى ودعا الله عز وجل أن يسهلها عليه ويفتح مُغْلَقها له ، وكان نادرة عصره في علمه وذكائه وتصانيفه ، وصنّف ما يقارب مئة مصنَّف ، ما بين مطوَّل ومختصر ورسالة في فنون شتى ، رحمه الله تعالى » .

٥٠ — وما أجمل قولَ علامةِ العربية ورئيسِ أهل اللسان فيها أبي القاسم الزمخشري ، يحكي تلذُّذَ العلماء بإيقاظ ليلهم وطولِ سهرهم :

سَهَري لتنقيح العلوم ألذُّ لي ... من وَصْل غانيةٍ وطِيب عِناقِ
وتمايلي طرباً لحلِّ عويصة ... أشهى وأحلى من مُدامة ساقِ
وصَريرُ أقلامي على أوراقها ... أحلى من الدَّوكاه والعُشّاقِ
وألذُّ من نَقْرِ الفتاة لدُفِّها ... نقري لأُلقي الرَّمْلَ عن أوراقي
أأبيتُ سهرانَ الدُّجى وتبيتُه ... نوماً وتبغي بعد ذاك لَحاقي ؟!

أنتقل بعد هذا إلى :

الجانب الثالث

في أخبارهم في الصبر على الفقر وشظف العيش ومرارته وبيع الملبوسات أو المفروشات .

وهذا الجانب يعد أوسع الجوانب في هذه الصفحات ، إذ كان الفقر شِعارَ العلماء ودِثارَهم على الغالب ، فيما مضى من الزمن وفيما يأتي .

٥١ — وقد عقد العلامة الفيلسوف المؤرخ ، والقاضي الفقيه ، والعالم الاجتماعي الأديب ، الشيخ ابن خلدون في « مقدمته » باباً كبيراً تحدَّث فيه عن طرق تحصيل المعاش ووجوه الكسب والصنائع ، وما يكون منها له الموردُ العظيم والثروة الكبيرة ، وما لا يكون منه ذلك ، ثم عقَدَ في ذلك الباب فصلاً خاصاً بيّن فيه سببَ قِلّةِ المال في أيدي العلماء ، فقال رحمه الله تعالى :

« الفصل السابع : في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفُتيا والتدريس والإمامة والخِطابة والأذان ونحوِ ذلك لا تَعظُمُ ثروتُهم في الغالب .

والسببُ لذلك : أن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية ، وهي متفاوتة بحسب الحاجة إليها ، فإذا كانت الأعمالُ ضروريةً في العُمرانِ عامّةَ البلوى به ، كانت قيمتُها أعظم ، وكانت الحاجةُ إليها أشد .

وأهلُ هذه الصنائع الدينية لا تُضطَرُّ إليهم عامّةُ الخلق ، وإنما يَحتاج إلى ما عندهم الخواصُّ ممن أقبَلَ على دينه ، وإن احتيج إلى الفُتيا والقضاء في الخصومات ، فليس على وجه الاضطرار والعموم ، فيقع الاستغناءُ عن هؤلاء في الأكثر .

وإنما يَهتم بإقامة مراسمهم صاحبُ الدولة بما له من النظر في المصالح ، فيَقسِمُ لهم حظاً من الرزق على نسبة الحاجة إليهم ، على النحو الذي قرَّرناه ، لا يُساويهم بأهلِ الشوكة ولا بأهلِ الصنائع ، من حيث الدينُ والمراسم

الشرعية ، لكنه يقسِمُ بحسب عموم الحاجة وضرورةِ أهلِ العُمران ، فلا يَصحُّ في قِسمهم إلا القليل .

وهم أيضاً لشرَفِ بضائعهم أعزَّةٌ على الخلق وعند نفوسهم ، فلا يَخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظاً يستدرون به الرزق ، بل ولا تَفرُغ أوقاتُهم لذلك ، لما هم فيه من الشُغل بهذه البضائعِ الشريفة المشتملة على إعمال الفكر والبدن ، بل ولا يَسعُهم ابتذالُ أنفسهم لأهل الدنيا لشرف بضائعهم ، فهم بمعزل عن ذلك ، فلذلك لا تَعظُمُ ثروتُهم في الغالب .

ولقد باحثتُ بعض الفضلاء — في هذا المعنى — فأنكر ذلك عليَّ ، فوقَعَ بيدي أوراق مُخرَّقةٌ من حسابات الدواوين بدار المأمون ، تشتمل على كثير من الدَّخْل والخَرْج ، وكان فيما طالعتُ فيه أرزاق القُضاة والأئمة والمؤذنين ، فوقَّفتُه عليه ، وعَلِمَ منه صحةَ ما قلتُه ورجع إليه ، وقضينا العجبَ من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه ، والله الخالقُ القادرُ لا ربَّ سواه » .

٥٢ — قال ياقوت الحموي في « معجم الأدباء » في ترجمة (ابن حزم : علي بن أحمد) ١٢ : ٢٣٩ « ذُكر أن ابن حزم اجتمع يوماً مع الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلَف الباجي صاحب التواليف الكثيرة ، وجرَتْ بينهما مناظرة — في سنة ٤٤٠ — فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد الباجي لابن حزم : تَعذُرُني فان أكثر مطالعاتي كانت على سُرُج الحُرَّاس ، قال ابن حزم : وتَعذُرُني أيضاً فانَّ أكثر مطالعاتي كانت على مَنائرِ الذهب والفضة . — أي على المصابيح المصنوعة من الذهب والفضة — (١) .

قال ياقوت الحموي : أراد أن الغِنَى أضيَعُ لطلب العلم من الفقر ! » .

(١) والخبر بنحو هذا المعنى في «نفح الطيب» ١ : ٣٥٨ . وقد وقع قوله (على منائر الذهب) محرفاً إلى (منابر الذهب) في « نفح الطيب » و « معجم الأدباء » و « ابن حزم » لأبي زهرة ص ٥٦ .

٥٣ — وجاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ، في ترجمة أبي الوليد الباجي (سليمان بن خلف) ٤ : ٨٠٤ من طبعة بيروت :

« كان أصلُه من بَطَلْيَوْس ، ثم انتقل إلى باجَةِ الأندلس ، وكان أوّلَ وروده الأندلس مُقِلاً من دنياه ، حتى احتاج في سفره إلى القَصْد بشعره وآجرَ نَفْسَه مدَّة مُقامِه ببغداد — فيما سمعتُه مستفيضاً — لحِراسة دَرْب ، فكان يستعين بإجارته على نفقتِه ، وبضَوْئه على مُطالعتِه .

ثم وردَ الأندلس وحالُه ضيِّقة ، فكان يتولَّى ضَرْب ورَق الذَّهَب للغَزْل والأنْزَال ، ويَعقِدُ الوثائق ، فلقد حدَّثني ثقة من أصحابه — والخبرُ في ذلك مشهور — أنه كان حينئذ يَخرج إلينا للقراءة عليه ، وفي يديه أثَرُ المِطرقةِ وصَدأُ العمل .

إلى أن فَشَا علمُه وعُرِف ، ونَوَّهَتْ الدنيا به ، وشُهِرَتْ تواليفُه ، فعُرِف حقُّه ، وجاءته الدنيا ، وعَظُمَ جاهُه ، وأُجزلَتْ صِلاتُه فاتَّسعَتْ حالُه ، وتوفَّر كسبُه ، حتى مات عن مالٍ وافرٍ خطير .

وجرَتْ له مجالسُ ومناظراتٌ مع ابن حزم ، كانت سببَ فضيحةِ ابن حزم وخروجِه من مَيُوْرْقَة ، وقد كان رأسَ أهلِها ، ثم لم يزل أمرُه في سِفَال فيما بعد » . انتهى . ونحوه في « نفح الطيب » ١ : ٣٥٨ و « الديباج المُذْهَب » ص ١٢٠ .

٥٤ — يقول العلامة الجليل الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى في كتابه « ابن حزم » ص ٥٦ ، بعد ذكره خبرَ اعتذار كل من الباجي وابن حزم لصاحبه بالحال التي نشأ عليها من الفقر المُدْقِع أو الغنى المُفْطِع : « يَرى ابن حزم أن كثرة المال وطيب العيش تَسُدُّ مسالكَ العلم إلى النفوس ، فلا تتجه إلى العلم ،

فان الجِدَّة قد تسهل اللهو ، وتفتح بابه ، وإذا انفتح باب اللهو سُدَّ باب النور والمعرفة ، فلذائذ الحياة وكثرتها تطمس نور القلب ، وتُعمي البصيرة ، وتذهب بحِدَّة الإدراك .

أما الفقير ، وإن شغله طلب القوت ، قد سُدَّت عليه أبواب اللهو ، فأشرقت النفس ، وانبثق نور الهداية ، هذا نظرُ ابن حزم .

أمّا نَظَرُ الباجي فانه متجه إلى الأسباب المادية من حيث تسهيل الحياة المادية ، من غير نظر إلى الأسباب النفسية التي تتضمن أن الغِنى يكون في كثير من الأحوال معه الانصرافُ عن العلم إلى اللهو ، وقد توفرت ذرائعه » . انتهى .

٥٥ — قال عبد الفتاح : والذي أراه أقرب إلى الصواب هو اعتذار الباجي ، فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه وقولُه القولُ الفصل : « لا تستشر من ليس في بيته دقيق ، لأنه مُدَلَّهُ العقل »[1] .

والحقيقة أن الفقر له حالان :

حال تتبلبلُ فيها الخواطرُ من الهم والغم وكثرة العيال وانكسار النفس الناشيء عن ذلك ، وما إلى هذا من علل الفقر التي تأخذ بالأنفاس والتلابيب ، ولنعبِّر عن هذا بالفقر الأسود كما يقال ، وهو الذي يُبدِّدُ الذهن ، ويقتل

(١) هكذا جاء هذا اللفظ : (مُدَلَّه) بالدال المهملة في « مناقب الإمام الشافعي » للبيهقي ٢ : ٢١٣ . وفي « القاموس » : « الدَّلَهُ : ذهابُ الفؤاد من هَمٍّ ونحوِه » . وجاء هذا اللفظ في « الانتقاء » لابن عبد البر ص ٨٧ : « مُوَلَّه » بالواو بَدَلَ الدال . وفي «القاموس» : « الوَلَهُ : الحُزْنُ أو ذهابُ العقل حُزْناً » . والرواية الأولى أولى بالسياق هنا ، والله تعالى أعلم .

وقال إبراهيم النّظّام : « إذا كان في جيرانك جنازة ، وليس في بيتك دقيق ، فلا تحضُر الجنازة ، فانَّ المُصيبة عندك أكثرُ منها عند القوم ، وبيتُك أولى بالمأتم ! » من « سَرْح العيون » لابن نُباتة المصري ص٢٣٠ . وانظر خبرَ إملاق النّظّام الآتي برقم ٨٧ .

النبوغ ، ويذوي صاحبُه كما تذوي الشجرةُ الخضراء إذا انقطع عنها الماء .

وحال ثانية يكون الإنسان فيها فقيراً ، ولكنه يكون خفيفَ المَؤُونة ، ثقيلَ الطمأنينة بالله ، لا يؤثِّر الفقرُ إلا على سطح جسده ، ومظهر لباسه ، وأما خاطره فمستقر مشرق ، ثابت منجمع ، ولنسمِّ هذا بالفقر الأبيض كما يقال ، وهو نعمة بالنظر الى طالب العلم في أول حياته ، حتى لا تشده الدنيا إلى مشاغلها وغمراتها ومفاتنها ، فان التقلل من الدنيا أمكن لحفظ العلم .

٥٦ — وهذا النوع يَشهد له خبرُ فقرِ أبي هريرة ، الذي يأتي في (الجانب الرابع) ص ٦٩ — ٧٠ ، فقد دعاه فقرُه إلى ملازمة رسول الله صلى الله عليه وسلم على طمأنينة وخِفةِ مسئولية ، فكان فقره في مآله حسنة عليه وعلى الناس ، إذ كان يلزم مجلسَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لِشبَع بطنه ، وكان في طيِّ ذلك حِفظُه السُّنّة للمسلمين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو كان صاحبَ تجارة أو نخيل ، كالذين عناهم في حديثه الآتي ص ٧٠ من المهاجرين والأنصار ، لشَغَله ما شغلَهم عن مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد حَفَلَتْ كتبُ الأدب والتراجم والتاريخ والأخلاق بأقوال العلماء في فقرهم وغُربتهم وصبرهم على شدائدهم الخانقة ، واستهانتهم بها وعدم اكترائهم لها ، تمسكاً منهم بمثوبة الصبر ، المحتسَب فيه الأجر ، والذي كانوا فيه من الفائزين .

فهذا قائل منهم يقول مسائلاً الفقرَ عن مسكنه ومنزله ليعرفَه فيجتنبَه ، فيخبره الفقرُ أنه جليسُه وأنيسُه ، وخَدينُه وقرينُه ، لا يبارحه ولا يفارقه !

قلت للفقر : أين أنت مقيمٌ ؟ قال لي : في عمائم الفقهاءِ !
إنَّ بيني وبينهم لإخاءً وعزيزٌ عليَّ تركُ الإخاءِ !

وآخَرُ يجعل الفِقهَ هو الفقرَ بعينه ، وإنما استدارَتْ راءُ الفقر فصارت هاء ، فيقول مشيراً إلى التلازم بين الفقه والفقر :

إنَّ الفقيهَ هو الفقيرُ وإنما   راءُ الفقيرِ تجمّعتْ أطرافُها

وآخرُ يَذكُرُ أثرَ الفَقْرِ عليه ! فقد جلَبَ له الهِجرانَ والتجاهُلَ من أعزِّ الناس لديه وأحبِّهم إليه !

وكان بنو عَمّي يقولون : مَرْحَباً   فلما رأوْني مُعْسِراً مات مَرْحَبُ !

٥٧ — وهذا الإمام الشافعي رضي الله عنه يستهين بسطوة الفاقة ، ويكسر جبروتَها بصبره الذي غلبها ، فيقول فيما نُسِبَ إليه رضي الله عنه :

أمطري لؤلؤاً سَماءَ سَرَنْدِيـ   ـبَ وَفيضي آبارَ تُكرُورَ تبرا(١)
أنا إن عِشتُ لستُ أعدَمُ قُوتاً   وإذا مِتُّ لستُ أعدَمُ قَبرا
هِمّتي هِمّةُ الملوك ونفسي   نفسُ حُرٍّ تَرَى المذَلّةَ كُفْرا
وإذا ما قَنَعْتُ بالقُوتِ عُمْري   فلماذا أزورُ زيداً وعَمْرا ؟

٥٨ — وهذا القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجُرجاني يقتدي بالإمام الشافعي فيقول ، كما في ترجمته في « وَفَيَات الأعيان » ١ : ٣٢٥ :

وقالوا : تَوصَّلْ بالخضوع إلى الغِنَى   وما علِموا أنَّ الخضوعَ هو الفقرُ
وبيني وبين المالِ شيئانِ حَرَّمَا   عليَّ الغِنَى : نفسي الأبيّةُ والدَّهْرُ
إذا قيل : هذا اليُسْرُ أبصرتُ دونه   مَواقفَ خيرٌ من وقوفي بها العُسْرُ !

٥٩ — وهذا آخرُ من العلماء يشمخ على الفقر والسؤالِ حتى ولو كان فيه نيلُ العلياء ، فيَنهى عن السؤال ومَدّ اليد ، ولو للعلياء ، فَمدُّ اليد من

(١) سرنديب : جزيرة كبيرة في أقصى الهند بالمشرق ، وتكرور اسم بلاد بأقصى جنوب المغرب .

العالم ذِلّةٌ وانكسارُ نفس ، والعالمُ داعية الحق ، فكسرُ نفسه بالسؤال إضعافٌ للحق الذي يدعو إليه ، فيقول ذلك الفقيرُ الشامخُ الأبيُّ :

وَلا تَمُدَّنَّ للعلياءِ منك يداً   حتى تقولَ لك العلياءُ هاتِ يَدَكْ

وآخرُ من العلماء يتململ ويَضعُفُ عن مُنازلةِ الفقرِ وأهواله ، وعن الصبر عن الاستعانة والاسترفاد فيقول :

الصَّبْرُ يُوجَدُ إن باءٌ له كُسِرَتْ   لكنه بسكون الباءِ مفقودُ

وآخرُ منهم يُصابرُ الخطوبَ والأحداثَ فيَصْبُرُها ، ويقول :

تنكّرَ لي دَهْري ولم يَدْرِ أنني   أعِزُّ وأحداثُ الزمانِ تَهُونُ
فبات يُريني الدَّهْرُ كيف اعتداؤه   وبِتُّ أُريه الصبرَ كيف يكونُ

وآخرُ من العلماء يشمخ على الفقر وآلامه وهجماته ، ويُنازِلُ الشدائد بصبره وعَزَماته ، بل وينازل الصبرَ ويُقاوِمُه ، فيغلِبُ الصبرَ ويَهزمُه ، فيقول في ذلك مخبراً عن قُوّة نفسه ومتانةِ شكيمته :

صابَرَ الصَّبْرَ فاستغاثَ به الصَّبْـ   ـرُ فقال الصَّبورُ : يا صَبْرُ صَبْرا

ويقف آخرُ من الشدائد يَمدحها ويُقرِّظُها ، لا حُبّاً بها واستدامةً لظِلِّها ، ولكن لأنها كَشفَتْ له العدوَّ من الصديق ، والدعيَّ من الوفيّ ، فيقول :

جَزَى اللهُ الشدائدَ كلَّ خيرٍ   وإن كانت تُغَصِّصُني بريقي
وما مَدْحي لها شُكراً ولكن   عَرَفتُ بها عَدُوِّي مِن صَدِيقي

٦٠ — وينصَحُ الإمامُ ابن هشام النحوي المصري ، صاحبُ كتاب « القطر » و« المغني » وغيرهما ، طَلَبَةَ العلم بالصبر على مَشاقِّ العلم والتحصيل ، إذ هو شَرْطٌ في نيل المراد العزيز الغالي ، فيقول :

ومن يَصطبرْ للعلم يَظفَرْ بنَيْلِـهِ ... ومن يَخطُبِ الحسناءَ يَصبرْ على البذل
ومن لم يُذِلِّ النفسَ في طلبِ العُلا ... يسيراً يَعِشْ دهراً طويلاً أخا ذُلِّ

٦١ — وكثيراً ما كان أولئك العلماء المملقون إذا عَضَّهم الفقرُ بنابه ، يُنشِدُون قولَ الأديب الوزير المُهَلَّبي (الحسن بن محمد الأزدي) المتوفى سنة ٣٥٢ ، وكان قد حلَّ به الإملاق وأقام عنده طويلاً :

ألا مَوْتٌ يُباعُ فأشتريهِ ... فهذا العَيْشُ ما لا خَيْرَ فيهِ
ألا مَوْتٌ لَذيذُ الطَّعْمِ يأتي ... يُخلِّصُني من العَيْشِ الكَريهِ
إذا أبصرتُ قبراً من بعيد ... وَدِدتُ لو انّني مما يَليهِ
ألا رَحِمَ المُهيمِنُ نَفْسَ حُرٍّ ... تَصدَّقَ بالوفاةِ على أخيهِ

وقوله أيضاً وقد اشتدَّتْ به الإضاقةُ — ونُسِب لأبي نُوَاس — كما في ترجمة الوزير من « الوَفَيَات » ١ : ١٤٢ :

ولو أني استَزَدتُك فوقَ ما بي ... من البَلْوَى لأعوزَكَ المَزيدُ
ولو عُرِضَتْ على الموتى حَيَاةٌ ... بعَيْشٍ مِثلِ عَيْشي لم يُرِيدوا !

٦٢ — وأختِم ما قالوه في هذا الباب بقول الشاعر أبي إسحاق الغَزِّي ، على لسان هؤلاء الأعلام الأماجد الصابرين ، وقد أحسن فيه كلَّ الإحسان إذ قال بلسان حالهم :

حمَلْنا من الأيامِ ما لا نُطيقُه ... كما حَمَلَ العظمُ الكسيرُ العَصَائبا

وبقولِ القائل الذي عانَقَه الفقرُ الأسودُ ولم يُفارِقْه ! وأخَذَ منه بخناقه وأنفاسِه وصادَقَه ولم يُصادِقْه ! وصاحَبَه مع دوام تَقَلْقُلِه في الأسفار ، وقَطْعِه البراري والقفار ، فقال معبِّراً بلسان شكواه ، عن بيان فقره وبلواه ! :

وبَدْرٍ أضاءَ الأرضَ شَرْقاً ومَغرِباً ... ومَوضِعُ رَحْلي منه أسوَدُ مُظلِمُ !

٦٣ — ومع هذا التبرُّمِ الشديد كلِّه من الفقر ، من أولئك العلماء الذين سمعتَ بعض أقوالهم فيه ، فقد ذهب المحدِّث الفقيه الشافعي (عبد الله بن أحمد بن زَبْر) قاضي مصر ، المولود سنة ٢٥٦ ، والمتوفى سنة ٣٢٩ رحمه الله تعالى ، إلى تفضيل الإملاق على اليَسار ، فألَّف « كتاب تشريف الفقر على الغِنَى » ، كما ذكره الحافظ الذهبي في ترجمته في « تاريخ الإسلام » ، في حوادث سنة ٣٢٩ . ولم يكن القاضي ابنُ زَبْر من الفقراء ، كما يُعلَم من ترجمته في « رفع الإصر عن قضاة مصر » للحافظ ابن حجر .

٦٤ — وأعود بعد هذا إلى ذكر طائفة من أخبار العلماء في هذا الجانب ، فأستهلها بإمام العربية ومُدوِّنها الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠ رحمه الله تعالى ، يحكي ابن خَلِّكان في ترجمته في « وَفَيَات الأعيان » ١ : ١٧٣ العجيبَ الغريبَ في حال فقره وعُدْمه فيقول :

« قال تلميذه النَّضْر بن شُمَيل : أقام الخليل في خُصٍّ من أخصاص البصرة ، لا يَقْدِرُ على فَلْسَين ! وأصحابُه يكسِبُون بعلمه الأموال ، ولقد سمعتُه يوماً يقول : إني لأُغلِقُ عليَّ بابي فما يُجاوزُه هَمِّي » .

٦٥ — وأُثَنِّي بالإمام مالك إمام دار الهجرة النبوية رضي الله عنه فأقول : قال القاضي عياض شيخ المالكية في عصره في كتابه « ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك » في (باب ابتداءِ طلبِ مالك للعلم وصَبْره عليه) ١ : ١٣٠ :

« قال ابن القاسم : أفضَى بمالك طَلَبُ العلم إلى أن نقَضَ سَقْفَ بيته فباع خشَبَه ، ثم مالَتْ عليه الدنيا بعد » . ثم نقل القاضي عياض ٢ : ٦٨ « قال مالك : لا يُنالُ هذا الأمر — يعني العلم — حتى يُذاقَ فيه طعمُ الفقر » .

٦٦ — وحكى الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ١٤ : ٢٤٤ في

ترجمة القاضي أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة المتوفى سنة ١٨٢ : « قال أبو يوسف كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقِلٌّ رَثُّ الحال ، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فانصرفتُ معه ، فقال : يا بُنَيَّ لا تَمُدَّنَّ رِجلَك مع أبي حنيفة ، فان أبا حنيفة خبزه مَشْوي ، وأنت تحتاج إلى المعاش ، فقصَّرتُ عن كثير من الطلب ، وآثرت طاعةَ أبي .

فتفقّدني أبو حنيفة وسأل عني ، فجعلت أتعاهَدُ مجلسَه ، فلما كان أوّلَ يوم أتيته بعدَ تأخري عنه ، قال لي : ما شَغَلَك عنا ؟ قلت : الشغلُ بالمعاش وطاعةُ والدي ، فجلستُ ، فلما انصرف الناسُ دفَعَ إليَّ صرَّة وقال : استمتع بهذه ، فنظرتُ فاذا فيها مئةُ درهم ، فقال لي : الزم الحَلْقَة ، وإذا نَفِدَتْ هذه فأعلمني ، فلزمتُ الحلقة ،فلما مضَتْ مدةٌ يسيرة دَفَع إليَّ مئةً أخرى ، ثم كان يتعاهدني ، وما أعلمته بخَلَّة قط ولا أخبرته بنفاد شيء ما ، وكان كأنه يُخبَرُ بنفادها حتى استغنيتُ وتموَّلت » .

٦٧ — وهناك رواية ثانية في نشأة الإمام أبي يوسف ، « قال علي بن الجعد : أخبرني أبو يوسف قال : تُوفّي أبي : إبراهيمُ بن حبيب ، وخلّفني صغيراً في حِجر أمي ، فأسلمَتْني إلى قَصَّار أخدمه ، فكنتأدَعُ القَصَّار وأمرُّ إلى حلقة أبي حنيفة ، فأجلس أستمع ، فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة ، فتأخذ بيدي وتَذهب بي إلى القصار ، وكان أبو حنيفة يُعنَى بي لما يَرَى من حضوري وحرصي على التعلُّم .

فلما كثُرَ ذلك على أمي وطال عليها هربي ، قالت لأبي حنيفة : ما لهذا الصبي فسادٌ غيرُك ! هذا صبيٌّ يتيم لا شيء له ، وإنما أُطعمه من مغزلي ! وآمُلُ أن يكسب دانِقاً يَعودُ به على نفسه . فقال لها أبو حنيفة : مُرِّي يا رَعْنَاء ، هوذا يتعلّم أكلَ الفالُوذَج بدُهن الفُستق . فانصرفَتْ عنه وقالت له : أنت شيخٌ قد خَرِفتَ وذهَبَ عقلك !

قال أبو يوسف : ثم لَزِمتُ أبا حنيفة وكان يتعاهدني بماله ، فما ترك لي خَلّة ، فنفعني الله بالعلم ورَفعني حتى تقلّدتُ القضاء ، وكنت أُجالس هارون الرشيد ، وآكلُ معه على مائدته ، فلما كان في بعض الأيام قُدِّم إلى هارون الرشيد فالوذَج ، فقال لي هارون : يا يعقوب كُلْ منه فليس يُعمَلُ لنا مثلُه كل يوم ، فقلت : وما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا فالوذج بدُهْن الفُستق ، فضحكت ، فقال لي : مم ضحكت ؟ فقلت : خيراً أبقى الله أمير المؤمنين ، قال : لَتُخبرَنّي — وألحَّ علي — فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها ، فعَجِبَ من ذلك وقال : لعمري : إنّ العلم ليرفَعُ وينفع دِيناً ودُنيا ، وترحّم على أبي حنيفة وقال : كان يَنظرُ بعينِ عقلِه ما لا يَراه بعين رأسه » .

٦٨ — وروى الحافظ ابن عبد البر في كتابه « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » ص ٧٠ بسنده إلى الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ رضي الله عنه قال :

« لم يكن لي مال ، وكنتُ أطلب العلم في الحداثة — أي في مستهل عمره ، وكانت سِنُّهُ أقلَّ من ثلاث عشرة سنة — وكنتُ أذهبُ إلى الديوان أستوهِبُ الظهور — أي ظهورَ الأوراقِ المكتوبِ عليها — فأكتبُ فيها » .

٦٩ — وقال المسعودي في «مروج الذهب » ٧ : ٧٣ — ٧٥، والقاضي عياض في « ترتيب المدارك » ٣ : ٢١٢ — ٢١٣ في ترجمة عالم المَغازي والسِّيَر (محمد بن عُمَر الواقدي) ، المتوفى سنة ٢٠٧ ، « قال محمد بن سعد : رآني الواقدي مغتماً فقال لي : لا تَغتَمّ ، فان الرزق يأتي من حيث لا تَحتسِب ، أملَقْتُ مرةً حتى بِعتُ بِرذَوْني [1] ! فاستبطأني يحيى بن خالد ، فاعتذرتُ إليه ، فوقف على حالي فأمر لي بخمس مئة دينار ، فصِرتُ بها إلى البيت ، فأنا في تصريفها في قضاء الدين والعيال ، إذ طَرَقني رجل من أهل المدينة قد قُطِعَ

---

(١) هو نوع من الخيل غير العربية ، وتسميه العامة عندنا في بلاد الشام : الكَدِيش .

عليه الطريق ، من ولد أبي بكر رضي الله عنه ، فشكا إليَّ حاله ، فدفعتُ إليه ما فَضَل ، ولم أشترِ بِرْذَوناً .

فاستبطأني يحيى بن خالد ، فأخبرته الخبر ، فوجّه إلى البكريِّ فسأله ؟ فقال : نعم أخذتُ الدنانيرَ منه ، فلما صِرتُ بها في البيت جاءني فلان الأنصاري ، فشكا إليَّ حالَه فدفعتُها إليه .

فوجّه يحيى إلى الأنصاري يسأله هل وجّه البكري إليه المال ؟ فأخبره الخبر ، فتعجّب يحيى بن خالد من الكرم ، ثم أمَرَ لي بألفِ دينار ، وللبكري بمثلها ، وللأنصاري بمثلها ، ولزوجتي بخمسِ مئةٍ لغمِّها حين دَفَعتُ الدنانير إلى البكري .

قال الواقدي : وكان لي صديقان ، أحدُهما هاشمي ، وكنا كنَفْسٍ واحدة ، فنالَتْني ضِيقة شديدة وحضر العيد ! ، فقالت لي امرأتي : أمّا نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة ، وأما صبياننا فقد قطّعوا قلبي رحمةً لهم ، لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزيّنوا في عيدهم ، وأصلحوا ثيابهم ، وهم على هذه الحال من الثياب الرَّثّة ! فلو احتلتَ بشيء تَصرِفه في كسوتهم !

فكتبتُ إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليَّ بما حضره ، فوجّه إليَّ كيساً مختوماً ، ذكَرَ أنَّ فيه ألف درهم ، فما استقرَّ قَراري حتى كتَبَ إليَّ الصديقُ الآخَر : يَشكو مِثلَ شكوايَ إلى صاحبي ، فوجّهتُ إليه الكيس بحاله ، وخرجتُ إلى المسجد فأقمتُ فيه ليلي مستحيياً من امرأتي ، ثم رجعتُ ، فلما دخلتُ عليها استحسنَتْ ما كان مني ولم تُعنِّفني عليه .

فبينا أنا كذلك ، إذ وافاني صديقي الهاشميُّ ومعه الكيسُ كهيئته ، فقال لي : اصدُقْني عما فعلتَه فيما وَجّهتُ إليك ، فعرّفته الخبر على جهته .

فقال : إنك وجّهتَ إليَّ تسألني العون وما أملِكُ إلا ما بَعَثتُ به إليك ، وكتبتُ إلى صديقنا أسأله المواساة ، فوجّه إلي بكيسي بخاتمي ، قال الواقدي :

فتواسَيْنا الألفَ ، وقسمناها بيننا أثلاثاً ، بعد أن أخرجنا للمرأة مئة درهم ، ونُمي الخبرُ إلى المأمون ، فدعاني فشرَحتُ له الأمر ، فأمَرَ لنا بسبعةِ آلاف دينار ، لكل واحدٍ منا ألفا دينار ، وللمرأة ألفُ دينار » .

٧٠ — وعقد الحافظ ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه « مناقب الإمام أحمد بن حنبل » باباً لذكر جماعة من العلماء لم يُجيبوا في محنة (مسألة خلق القرآن) [1] ، فذكَرَ منهم (عفّان بن مسلم) شيخَ البخاري المتوفى سنة ٢٢٠ ، فقال في ص ٣٩٤ : « وكان عفان بن مسلم أوّل من امتُحن من الناس » .

ثم ساق ابن الجوزي بسنده إلى القاسم بن أبي صالح : « قال : سمعتُ إبراهيم — بن الحُسَين بن دِيْزيل — يقول : لما دُعي عفان بن مسلم للمحنة ، كنتُ آخذاً بلجام حماره ، فلما حَضَر عُرِضَ عليه القول فامتَنَع أن يجيب ، فقيل له : يُحبَس عطاؤك ، وكان يُعطَى في كل شهر ألفَ درهم ، فقال : ﴿وفي السّماء رِزْقُكم وما تُوعَدُون﴾ . فلما رجع إلى داره عذَلَه — أي لامَه — نساؤه ومن في داره ، وكان في داره نحوُ أربعين إنساناً .

فدَقَّ عليه داقٌّ الباب ، فدخَلَ عليه رجل — قال — : شَبّهتُه بسمّان أو زيّات ، ومعه كيس فيه ألف درهم ، فقال : يا أبا عثمان ثبّتك الله كما ثبّتَّ الدين ، وهذا لك في كل شهر » .

٧١ — وهذا إمام الأئمة في علم الجرح والتعديل (يحيى بن مَعين) شيخ البخاري ومسلم وسواهما من أئمة الحديث ، المتوفى سنة ٢٣٣ ، قال العُلَيمي في ترجمته في « المنهج الأحمد » ١ : ٩٥ « وُلِدَ في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ١٥٨ ، وكان أبوه (مَعين) كاتباً لعبد الله بن مالك ، ثم صار على خراج الرَّيّ ، فمات ، فخلّف لابنه (يحيى) ألفَ ألفِ درهم وخمسين ألفَ درهم ،

---

(١) انظر رسالتي « مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل » . ففيها إبانة لتاريخ هذه المسألة وسببها ومخلّفاتها !

فأنفقه كلَّه يحيى على الحديث ، حتى لم يبق له نَعْلٌ يَلْبَسُه !

وخلَّف يحيى من الكتب مئةَ قِمَطْر وأربعةَ عشر قِمَطراً (١) ، وأربعَ حِبَاب شِبْرانيّة مملوءة كتباً » . وفي « تهذيب التهذيب » ١١ : ٢٨٢ « وعشرين حُبّاً » (٢) .

٧٢ — وجاء في « تذكرة الحفاظ » ٢ : ٥١٠ ، و « تهذيب التهذيب » ٩ : ١٦١ ، و « تهذيب الكمال » للحافظ المزي — مخطوط — ، كلهم ذكروا في ترجمة (محمد بن رافع النيسابوري) الحافظ القُدوة شيخ البخاري ومسلم وطبقتهما ، المتوفى سنة ٢٤٥ رحمه الله تعالى ، — والسياقُ الآتي من مجموع كلامهم — :

---

(١) قال صاحب « لسان العرب » فيه : « القِمَطْرُ : أصلُه البعير الشديدُ الصُّلب ، أو الضخمُ القوي . ثم أُطلق على شبه السَّفَط من القَصَب ، تُصان به الكتب » . وقال في « القاموس » في تفسير (السَّفَط) : « السَّفَط كالجُوالق أو كالقُفَّة ، جمعُه أسفاط » . وقال الزبيدي في « شرح الإحياء » ١ : ٣٥٩ : « القمطر كالقمطرة : سَفَطٌ يسوَّى من قصب يصان فيه الكتب » . وجاء في « تهذيب التهذيب » في ترجمة (يحيى بن معين) ١١ : ٢٨٢ « قال محمد بن نصر الطبري : دخلتُ على ابن معين ، فوجدتُ عنده كذا وكذا سَفَطاً ، وسمعته يقول : كل حديث لا يوجد هاهنا ، وأشار بيده إلى الأسفاط ، فهو كذب » . انتهى .

فالقِمَطْرُ في كلام العلماء المرادُ به السَّفَط الذي تحفظ به الكتب .

(٢) الحِباب بالحاء المهملة المكسورة : جمع (حُبّ) بضم الحاء ، وهو الجرَّة الكبيرة الضخمة . وكانوا يضعون كتبهم في تلك الجرار الكبيرة حفظاً لها ، وقد شهدتها في بعض القرى القديمة يخزنون فيها الحبوب ، وسعةُ محيطها لا يُحيط بها ذراعا رجلين متقابلين . ووقع في « المنهج الأحمد » و « تهذيب التهذيب » بلفظ (وأربع جِباب) و (عشرين جُبّاً) بالجيم فيهما ، وهو تحريف عما أثبته . و (شِبْرانية) أي كبيرة تقاس بالأشبار الكثيرة .

« قال زكريا بن دَلُّوْيَه : بعَثَ الأمير طاهر — بن عبد الله الخُزاعي — إلى محمد بن رافع بخمسة آلاف درهم ، على يد رسول له ، فدخل عليه بعد صلاة العصر ، وهو يأكل الخبز مع الفِجل ، فوضَع الكيس بين يديه ، وقال : بعَثَ الأمير طاهر بهذ المال لتنفقه على أهلِك .

فقال له محمد بن رافع : خُذْ خُذْ لا أحتاج إليه ، فانَّ الشمس قد بلغَتْ رأسَ الحيطان ، إنما تَغْرُبُ بعد ساعة ، قد جاوزتُ الثمانين ، إلى متى أعيش ؟ فردَّ المال ولم يقبله ، فأخذ الرسولُ المال وذهب ، فدخل على محمد بن رافع ابنُه فقال له : يا أبَه ليس لنا خبزٌ الليلة ! وكان محمد بن رافع يَخرج إلينا في الشتاء الشاتي ، وقد لَبِس لِحافَه الذي يَلْبَسُه بالليل ! » .

٧٣ — قال القاضي ابن خلِّكان في كتابه « وفَيَات الأعيان » ١ : ١٧٥ — ١٧٦ في ترجمة (داود بن علي الأصبهاني البغدادي الظاهري) إمام الظاهرية المتوفى سنة ٢٧٠ : « انتهَتْ إليه رياسةُ العلم ببغداد .

قال أبو عبد الله المَحامِلي : صلّيتُ صلاة عيد الفطر في جامع المدينة ، وقلت : أدخُلُ على داود بن عليّ فأهنّيه ، فجئتُه وإذا بين يديه طبَقٌ فيه أوراق هِنْدَباء (١) ، وعُصارة فيها نُخالة وهو يأكل ، فهنأتُه وعجبتُ من حاله ! ورأيتُ أن جميع ما في الدنيا ليس بشيء .

فخرجتُ من عنده ودخلتُ على رجل من محبّي الصنيعة — أي فعل الخير والكرم — يقال له : الجُرجاني ، فخرج إليَّ حاسرَ الرأس حافِيَ القدمين ، وقال لي : ما عَنَّى القاضي ؟ ! قلت : مُهِم ! قال : ما هو ؟ قلت : في جوارك داودُ بن علي ومكانُه من العلم ما تعلمه ، وأنت كثيرُ الصلة والرغبة في الخير تَغفُلُ عنه ؟ ! وحدَّثته بما رأيت .

فقال الجُرجانيُّ : داودُ شَرِسُ الخُلُق ! وجّهتُ إليه البارحة بألفِ

---

(١) نوع من البقول رخيص مبذول .

درهم ليستعين بها فردَّها علي ، وقال للغلام : قل له : بأيِّ عينٍ رأيتَني ؟ وما الذي بَلَّغكَ من حاجتي وخَلَّتي حتى بعثت لي بهذا ؟ !

قال المَحاملي : فعَجِبتُ وقلت للجُرجاني : هات الدراهم ، فإني أحملها إليه ، فدفعها إليَّ ، وقال للغلام : ائتني بكيس آخر ، فوزن ألفاً أخرى وقال : تلك لنا وهذه لعناية القاضي ، فأخذتُ له الألفين وجئتُ إليه ، فقَرعتُ الباب ودخلتُ وجلستُ ساعة ، ثم أخرجت الدراهم وجعلتها بين يديه ، فقال : هذا جَزاءُ من ائتَمنك على سِرِّه ؟ أنا بأمانةِ العلمِ أدخلتُك إليَّ ، ارجع فلا حاجة لي فيما معك .

قال المَحاملي : فرجعتُ وقد صَغُرَتْ الدنيا في عيني ، وأخبرتُ الجُرجاني فقال : إني أخرجت هذه الدراهم لله تعالى فلا تَرجعُ في مالي ، فليتولَّ القاضي إخراجَها في أهل البرِّ والعفاف » .

٧٤ — ومن غريب ما وقع من هذا الإمام — داود بن علي الظاهري — الفقير المعدمِ الصابرِ المطمئنِّ رحمه الله تعالى ، أنه ازدرى عالماً كبيراً من العلماء لفقره ، فبخَعه ذلك العالم الفقير بالعلم ، فكان له من ذلك درسٌ عجيب !

قال القاضي ابن خَلِّكان : « قيل : إنه كان يَحضُرُ مجلس داود بن علي الظاهري كلَّ يوم أربعُ مئةِ صاحب طَيْلَسان أخضر — أي أربعُ مئة عالم كبير — ، قال داود : حَضَرَ مجلسي يوماً أبو يعقوب الشُّرَيطي ، وكان من أهل البصرة [1] ، وعليه خِرقتان ! فتصدَّر لنفسه من غير أن يَرفعه أحد ،

(١) لم أقف على ترجمة (أبي يعقوب الشريطي) هذا فيما تيسر لي من المراجع ، وشكلته بالتصغير ترجيحاً مني . وأما قول القاضي محمد سليمان في كتابه « من أخلاق العلماء » ص ٣٢٢ : « والظاهر أن أبا يعقوب هذا هو : الشهيدي ، قد عاصر داود ، وهو إسحاق بن إبراهيم بن حبيب الشهيدي — كذا — ، كان من البصرة ، وتوفي سنة ٢٥٧ ، ووفاةُ داود سنة ٢٧٠ » . انتهى . فهو غير ظاهر ولا صواب عندي ، فقد ترجم الخطيب في « تاريخ بغداد » ٦ : ٣٧٠ لإسحاق هذا ، باسم (إسحاق بن إبراهيم بن

وجَلَس إلى جانبي ، وقال لي : سَلْ يا فتى عما بدا لك ، فكأني غضبتُ منه ! فقلت له مستهزئاً : أسألُك عن الحِجامة ، فبرَك أبو يعقوب ، ثم رَوَى طريقَ حديث « أفطَرَ الحاجمُ والمحجوم » ، ومن أرسَله ، ومن أسنَدَه ، ومن وقَفَه ، ومن ذهب إليه من الفقهاء .

ورَوَى اختلافَ طريق حديث احتجام النبي صلى الله عليه وسلم وإعطاء الحجّام أجرَه ، ولو كان حراماً لم يُعطِه ، ثم رَوَى طُرُقَ حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم احتَجَم بقَرْن ، وذكَرَ أحاديثَ صحيحة في الحجامة ، ثم ذكَرَ الأحاديث المتوسِّطة مثلَ « ما مررتُ بملأ من الملائكة ... » ومثلَ « شِفاءُ أمتي في ثلاث . . . » وما أشبه ذلك .

وذكَرَ الأحاديث الضعيفة — أي الموضوعة — مثلَ قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تحتجموا يوم كذا ، ولا ساعة كذا » . ثم ذكَرَ ما ذهب إليه أهلُ الطب من الحجامة في كل زمان وما ذكروه فيها ، ثم ختَمَ كلامَه بأن قال : وأوّلُ ما خَرَجتْ الحجامة من أصبهان ! — بلد داود بن علي الظاهري — ، فقلت له : والله لا حَقَرتُ بعدك أحداً أبداً » [1] .

الشهيد) هكذا بدون نسبة ، ولم يذكر أن كنيته (أبو يعقوب) ، وليس في ترجمته ما يشعر بأنه صاحب الواقعة مع (داود) .

ولا يلزم من كون كنيته (أبا يعقوب) أن يكون اسمه (إسحاق) ، فقد جاء في «تاريخ بغداد » ٦ : ٣١٦ — ٤٠٤ تراجم أعداد كثيرة من العلماء المسمَّيْن : (إسحاق) ، وكناهم غير (أبي يعقوب) ، فقد تكون كنية (الشريطي) : (أبا يعقوب) وليس اسمه (إسحاق) ، كما أن كثيراً ممن سمي (إسحاق) لم تكن كنيته (أبا يعقوب) ، فاعلم ذلك ، وابحث عنه لعلك تقف على ترجمته .

(١) تكلم الشيخ الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، على (الحِجامة) وما ورد فيها مما صح ومما لم يصح ، وعلى ما يتعلق بها زماناً وسِنّاً ومكاناً ... ، وأوسعَ الكلامَ فيها في كتابه « زاد المعاد » ٣ : ١٦٧ — ١٧٦ ، فليعد إليه من شاء .

٧٥ — وقال الأمير الصنعاني في « توضيح الأفكار » ٢ : ٢٥٤ « ومن العلماء من رَخّص في أخذ الأُجرة على التحديث ، منهم أبو نُعَيم الفضل بن دُكَيْن المولود سنة ١٣٠ والمتوفى سنة ٢١٩ شيخُ البخاري وأحمد وإسحاق بن راهويه وابن المبارك وخلقٍ ، كان يأخذُ العِوَض على التحديث ، بحيث إنه كان إذا لم يكن مع الطلبة دراهم صِحاحٌ بل مكسورة أخَذَ صَرْفَها — أي الفَرْقَ الذي يكون بين القِطَع الصغيرة والكبيرة — وكان يقول : يلومونني على الأخذ ، وفي بيتي ثلاثةَ عشَرَ إنساناً ، وما في بيتي رغيف ! » .

٧٦ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٢ : ٦٣٠ في ترجمة الإمام الحافظ شيخ الإسلام (بَقِيّ بن مَخْلَد القرطبي) ، المتوفى سنة ٢٧٦ رحمه الله تعالى ، وقد طوَّف الشرق والغرب على قدميه ، قال الذهبي : « قال أبو الوليد الفرضي : كانَ بَقيٌّ يقول : إني لأعرف رجلاً كانت تمضي عليه الأيامُ في وقت طلبه ، ليس له عيش إلا ورقُ الكُرُنْب » (١) .

٧٧ — قال عبد الفتاح : يعني بالرجل نفسَه رحمه الله تعالى . وقال بَقِيٌّ أيضاً : « كلُّ من رحلتُ إليه ، فماشياً على قَدَمَيّ » . وقد رحل من الأندلس إلى أحمد بن حنبل في بغداد ، كما تقدم ذكر رحلته إليه في الخبر — ٢٠ — .

٧٨ — وجاء في « تهذيب التهذيب » ٩ : ٤٩٠ للحافظ ابن حجر ، في ترجمة الإمام (محمد بن نصر المروزي) المتوفى سنة ٢٩٤ « قال محمد بن نصر : أقمتُ بمصر كذا كذا سنة ، فكان قُوْتي ، وثيابي ، وكاغذي — أي وَرَقي — وحِبري في السنة عشرين درهماً » .

٧٩ — وساق تاج الدين السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » ٢ : ٤٣ بسنده ، وذكَرَ الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » ١١ : ١٠٣ في ترجمة (محمد بن نصر المَرْوَزي) ، والحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » في ترجمة

(١) الكرنب : هو السِّلْق أو نوع يشبهه يسمى الملفوف .

(محمد بن هارون الرُّوياني) ٢ : ٧٥٣ ، حكايةَ إملاق المحمَّدِين بمصر ، والسياقةُ الآتية هي للتاج السبكي : « قال أبو العباس البكري : جمَعَتْ الرحلةُ بين محمد بن جَرير الطبري ، ومحمد بن إسحاق بن خُزَيمة ، ومحمد بن نَصْر المَرْوَزي ، ومحمد بن هارون الرُّويَاني بمصر (١) ، فأرملُوا ولم يبق عندهم ما يَقُوتُهم ، وأضَرَّ بهم الجُوع !

فاجتمعوا ليلةً في منزلٍ كانوا يأوون إليه — يكتبون فيه الحديث الشريف — ، فاتّفَق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القُرْعة ، فمن خرَجَتْ عليه القُرعة سأل لأصحابه الطعامَ ، فخرجَت القُرعة على محمد بن إسحاق بن خُزَيمة .

فقال لأصحابه : أمهِلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاةَ الخِيرَة أي الاستخارة ، فاندفع في الصلاة ، فإذا هُمْ بالشّموع ، وخَصِيٍّ من قِبَل والي مصر — واليه أحمد بن طولون — يَدُقُّ الباب ، ففتحوا الباب ، فنَزَل عن دابته فقال : أيكم محمد بن نصر ؟ فقيل : هو هذا ، فأخرجَ صُرَّةً فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه .

ثم قال : أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا : هو هذا ، فأخرج صُرَّةً فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ، ثم قال : أيكم محمد بن إسحاق بن خُزَيمة ؟ فقالوا هو هذا يصلي ، فلما فَرَغ من صلاته دفعَ إليه الصُرَّة وفيها خمسون ديناراً ، ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ وفعَل به كذلك .

ثم قال : إن الأمير كان قائلاً بالأمس — أي نائماً وقت الظهيرة — ، فرأى في المنام خَيَالاً قال له : إن المَحامِدَ طَوَوا كَشْحَهم جِياعاً ، فأنفَذَ إليكم هذه الصُرَر ، وأقسَمَ عليكم إذا نَفِدَت فعرِّفوني » .

(٢) وذلك قبل سنة ٢٩٤ ، فقد مات محمد بن نصر في المحرم من سنة ٢٩٤ بسمرقند ، بل قبل سنة ٢٧٠ التي توفي فيها والي مصر أحمد بن طولون إن كانت الواقعة في زمانه ، وكانت وفاة الروياني سنة ٣٠٧ ، ووفاة ابن جرير سنة ٣١٠ ، ووفاة ابن خزيمة سنة ٣١١ .

٨٠ — وهذا إمام النحو واللغة والشعر والأدب والحديث (النَّضْر بن شُمَيْل المازني) ، المولود سنة ١٢٢ والمتوفى سنة ٢٠٣ ، قال القاضي ابن خلِّكان في ترجمته في « وَفَيَات الأعيان » ٢ : ١٦١ : « ذكره أبو عُبَيدة في كتاب « مثالب البصرة » فقال : ضاقَتْ المعيشةُ على النضر بن شُمَيل البصري بالبصرة ، فخرج يريد خراسان ! فشيّعه من أهل البصرة نحو من ثلاثة آلاف رجل ، ما فيهم إلا محدِّث أو نَحْوِيّ أو لغوي أو عَرُوضي أو أخباري .

فلما صار بالمِرْبَد جلَسَ وقال : يا أهل البصرة يَعِزُّ عليَّ فراقُكم ! والله لو وجدتُ كلَّ يوم كَيْلَجةَ باقِلّى ما فارقتكم [1] . قال: فلم يكن أحد فيهم يتكلّفُ له ذلك ، فسار حتى وصل خراسان ، فأفاد بها مالاً عظيماً ، وكانت إقامته بمَرْو .

وجَرَى له مع المأمون بن هارون الرشيد، لمّا كان مقيماً بمَرْوَ حكاياتٌ ونوادر ، قال النضر : كنتُ أُدخَلُ على المأمون في سَمَرِه ، فدخلتُ ذاتَ ليلة وعليَّ ثوبٌ مرقوع ، فقال : يا نَضْر ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخُلْقان ؟ — أي الثياب البالية — قلت : يا أمير المؤمنين أنا شيخٌ ضعيف ، وحَرُّ مَرْوَ شديد ، فأتبرّدُ بهذه الخُلْقان ، قال : لا ، ولكنك رجل متقَشِّفٌ .

ثم أجرينا الحديث ، فأجرى هو ذكر النساء فقال : حدثنا هُشَيم عن مُجالد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تَزوّج الرجل المرأةَ لِدينها وجمالِها كان فيه سَداد من عَوَز » . فأورده بفتح السين (سَدادٌ مِن عَوَز) . فقلت : صدَقَ — يا أمير المؤمنين — هُشَيم . حدّثنا عوف بن أبي جَمِيلة ، عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا

(١) الكَيْلجة : كيل معروف لأهل العراق . ولعله دون (الكيلو) في زمننا ، والباقلى : الفول .

تَزوَّج الرجلُ المرأةَ لدِينها وجمالِها كان فيها سِداد مِن عَوَز » .

قال : وكان المأمون متكئاً فاستوى جالسا وقال : يا نضر كيف قلتَ : سِداد ؟ قلتُ : لأنَّ (السَّداد) ها هنا لحن ، قال : أو تُلحِّنُني ؟ قلت : إنما لحَنَ هُشَيم وكان لحّانة ، فتبِعَ أميرُ المؤمنين لَفْظَه ، قال : فما الفرق بينهما ؟ قلتُ : السَّدادُ : بالفتح : القَصْدُ — أي الاعتدال — في الدِّين والسَّبيل ، والسِّدادُ بالكسر : البُلْغةُ وكلُّ ما سَدَدتَ به شيئاً فهو سِداد ، قال : أوَ تَعرِفُ العربُ ذلك ؟

قلت : نعم ، هذا العَرْجي يقول :

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا ... ليومِ كريهةٍ وسِدادِ ثَغْرِ

فقال المأمون : قبّح الله من لا أدبَ له ! وأطرق مَلِيّاً ثم قال : مالك يا نضر ؟ قلت : أُرَيضَة بمَرْوَ أتصابُّها وأتمزَّزُها ، قال : أفلا نُفيدك مالاً معها ؟ قلت : إني إلى ذلك لمحتاج ، فأخذ القرطاس وأنا لا أدري ما يكتب ، ثم قال لخادمه : تَبلُغُ معه إلى الفضل بن سهل ، فلما قرأ الفضلُ القِرطاسَ ، قال : يا نضر إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألفَ درهم ، فما كان السببُ فيه ؟ فأخبرته ولم أكذبه ، فأمَرَ لي بثلاثين ألف درهم ، فأخذتُ ثمانين ألف درهم بحرفٍ استُفيد مني » . انتهى مختصراً من « وفَيَات الأعيان » .

٨١ — وحكى القاضي شمس الدين ابن خلّكان في تاريخه « وَفَيَات الأعيان » ١ : ٣٠٤ في ترجمة (القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي) البغدادي الفقيه المولود في بغداد سنة ٣٦٢ ، المتوفى بمصر سنة ٤٢٢ رحمه الله تعالى :

قال : « ذكره ابن بسّام في « الذخيرة » فقال : كان بقيّةَ الناس ، ولسانَ أصحاب القياس ، وقد وجدتُ له شعراً مَعانيه أجْلَى من الصُّبح ، وألفاظُه أحلى من الظَّفَر بالنُّجْح . ونَبَتْ به بغداد ، كعادةِ البلاد بذوي فَضْلِها ،

على حُكمِ الأيام بمُحسِني أهلِها ، فخلَعَ أهلَها ، وَودَّعَ ماءَها وظلَّها .
وحُدِّثتُ أنه شيَّعه يوم فصَلَ عنها من أكابرها وأصحاب محابرها جملةٌ موفورة وطوائف كثيرة ، وأنه قال لهم : لو وجدتُ بين ظَهْرانَيْكم رغيفين كلَّ غداةٍ وعَشيَّة ما عدَلتُ عن بلدكم ، وفي ذلك يقول :

سلامٌ على بغداد في كل موطنٍ   وحُقَّ لها مني سَلامٌ مضاعَفُ
فوالله ما فارقْتُها عن قِلىً لهــا   وإني بشَطّيْ جانبيها لَعــارفُ
ولكنها ضاقَتْ عليَّ بأسْرِهــا   ولم تكن الأرزاقُ فيها تُساعِفُ
وكانت كخِلٍّ كنتُ أهوى دُنوَّه   وأخلاقُه تنأى به وتخالِفُ !

ويقول في ذلك أيضاً :

بغدادُ دارٌ لأهلِ المالِ طيِّبةٌ   وللمفاليس دارُ الضَّنْكِ والضِّيقِ
ظَلِلتُ حيرانَ أمشي في أزِقّتها   كأنني مُصحَفٌ في بَيْتِ زِنديقِ

واجتاز في طريقه من بغداد إلى مصر بمَعَرَّة النُّعمان ـــ بلده بقرب مدينة حَلَب في غَرْبِها ـــ ، وبالمَعَرَّة يومئذ أبو العلاء المَعَرِّي ، فأضافه وأُعجِبَ بعلمه وفقهه وأدبه وشعره ، وفي ذلك يقول من جملة أبيات :

والمالكيُّ ابنُ نَصْرٍ زارَ في سَفَرٍ   بلادَنا فَحمِدْنا النَّأيَ والسَّفَرا[1]
إذا تفَقَّه أحيا مالِكاً جدَلاً   ويَنْشُرُ المَلِكَ الضِّلِّيلَ إنْ شَعَرا[2]

ثم توجّه إلى مصر فحمَلَ لواءَها ، وملأ بالعلم أرضَها وسماءَهــا ،

(١) وذلك أنَّ سفره ونَأيَه عن بلده بغداد ، مكّنَنَا أن نَحظى بفضله ولقائه ، ولولا نأيُه وسَفَرُه عنها لما مَرَّ بنا ولما حَظِينا بذلك . فالحمدُ للنأي والسفر من هذه الناحية .
(٢) أي ويُحيي امرأ القيس إذا قال الشعر ، لبلاغته وفصاحته وجزالته وجمالِ معانيه وإبداعه . والمَلِكُ الضِّلِّيل لقبُ امرىء القيس .

وتناهت إليه الغرائب ، وانثالَتْ في يديه الرغائب ، فمات لأوّل ما وصلَها ، من أكلةٍ اشتهاها فأكلها ، فقال وهو يتقلّبُ في مرضه : لا إله إلا الله : إذا عِشنا مِتنا !

وهو الذي يقول :

متى يَصِلُ العِطاشُ إلى ارتواءٍ   إذا استَقَتِ البِحارُ من الرَّكايا
ومن يَثْني الأصاغِرَ عن مُرادٍ   إذا جَلَسَ الأكابرُ في الزَّوايا
وإنَّ ترفُّعَ الوُضَعاءِ يومــاً   على الرُّفَعاء من إحدى الرزايــا
إذا استوَت الأسافِلُ والأعالي   فقد طابَتْ مُنادَمةُ المنايــا » .

٨٢ ـــ وجاء في « طبقات الحنابلة » للقاضي ابنِ أبي يعلى ، في ترجمة (القاضي أبي علي الهاشمي محمد بن أحمد الحنبلي) ٢ : ١٨٥ المتوفى سنة ٤٢٨ ببغداد .

جاء فيها : « ذكَرَ أبو علي بن شوكة قال : اجتمعنا جماعةٌ من الفقهاء ، فدخلنا على القاضي أبي علي الهاشمي ، فذكرنا له فَقْرَنا وشدّةَ ضُرِّنا ! فقال لنا : اصبروا ، فانَّ الله سيرزقكم ويُوسِّعُ عليكم ، وأحدِّثُكم في مثل هــذا بما تطيب به قلوبكم :

أذكُرُ سنةً من السنين وقد ضاق بي الأمرُ شيئاً عظيماً ، حتى بِعْتُ رَحْلَ داري ، ونَفِدَ جميعُه ، ونَقَضْتُ الطبقة الوسطى من داري ، وبعتُ أخشابَها وتقوّتُ بثمنها ، وقَعدتُ في البيت فلم أخرُج ، وبقيتُ سنةً ، فلما كان بعدَ ســنةٍ قالت لي المرأة : البابُ يُدَقُّ ، فقلتُ لهــا : افتحي الباب ، ففعلَتْ ، فدخل رجل فسلَّم علي ، فلما رأى حالي لم يَجلس حتى أنشدني وهو قائم :

ليس مِن شدّةٍ تُصيبُــك إلا   سوف تَمضي وسوف تُكشَفُ كَشفا
لا يَضِقْ ذَرْعُكَ الرَّحيبُ فانَّ النا   رَ يعلو لهيبُها ثم تَطفَــا
قد رأينا من كان أشفَى على الهُلْـ   ـكِ فوافَتْ نجاتُه حين أشــفَى

ثم خرج عني ولم يقعد ، فتفاءلتُ بقوله . فلم يخرُج اليومُ عني حتى جاءني رسولُ القادر بالله ، ومعه ثياب ودنانير ، وبغلة بمركب ، ثم قال لي : أجب أمير المؤمنين ، وسلّم إليّ الدنانير والثياب والبغلة ، فغيّرتُ عن حالي ، ودخلت الحمّام ، وصِرتُ إلى القادر بالله ، فردّ إليّ قضاء الكوفة وأعمالها ، وأثرى حالي » .

٨٣ — وقال الحافظ الإمام الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٤ : ١٢٢٦ في ترجمة الإمام القدوة مُفيد بغداد (أبي بكر محمد بن أحمد البغدادي) ، المعروف بابن الخاضِبة ، المتوفى سنة ٤٨٩ :

« قال محمد بن طاهر المقدسي : سمعتُ ابنَ الخاضبة — وكنتُ ذكرتُ له أن بعض الهاشميين حدّثني بأصبهان ، أن أبا الحسين بنَ المهتدي بالله يَرى الاعتزال — فقال : لا أدري ، ولكن أحكي لك :

لما كانت سنَةُ الغَرَق وقعَتْ داري على قُماشي وكُتُبي ، ولم يكن لي شيء ! وكانت عندي الوالدة والزوجة والبنات ، فكنت أنسَخُ وأنفق عليهن ، فأعرفُ أني كتبتُ « صحيح مسلم » في تلك السنة سبعَ مرات ! فلما كانت ليلةٌ من الليالي رأيتُ — في النوم — كأن القيامة قامت ، ومناد ينادي : أين ابنُ الخاضبة ؟ فأُحضِرتُ ، فقيل لي : ادْخُل الجنة ، فلما دخلتُ الباب وصِرتُ من الداخل استَلْقَيتُ على قفاي ، ووضعتُ إحدى رجليّ على الأخرى ، وقلتُ : استرَحتُ والله من النَّسْخ !

فرفعتُ رأسي فإذا ببغلة في يد غلام ، فقلتُ : لمن هذه ؟ قالوا : للشريف أبي الحسن الغريق ، فلما أصبحتُ نُعِيَ إلينا الشريف » .

٨٤ — وقال القاضي ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ١ : ٢٥٦ في ترجمة ابن الدهان الموصلي (عبد الله بن أسعد) الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٥٨١ : « كان فقيهاً فاضلاً أديباً شاعراً لطيفَ الشعر مليحَ السَّبك ، وهو من أهل

الموصل ، ولما ضاقَتْ به الحالُ عزَمَ على قصد الصالح بن رُزِّيك وزير مصر ، وعجزَتْ قُدْرتُه عن استصحاب زوجته ، فكتب إلى الشريف ضياء الدين بن عبيد الله الحسيني نقيب العلويين بالموصل هذه الأبيات :

وذاتِ شَجْوٍ أسال البَيْنُ عَبْرتَها   كانت تؤمِّلُ بالتفنيد إمساكي

لَجّتْ فلما رأتني لا أُصيخُ لها   بكَتْ فأقْرَحَ قلبي جَفنُها الباكي

قالت وقد رأت الأجمال مُحْدَجةً   والبَيْنُ قد جمعَ المشكوّ والشاكي

من لي إذا غبتَ في ذا المَحْل قلتُ لها :   اللهُ وابنُ عُبَيد الله مولاكِ

لا تجزعي بانحباس الغَيْث عنك فقد   سألتُ نَوْءَ الثُرَيّا جُودَ مَغناكِ

فتكفّل الشريفُ المذكور لزوجته بجميع ما تحتاج إليه مدة غيبته عنها ، ثم توجه إلى مصر ، ومدَح الصالح بنَ رُزِّيك ، ثم تقلبت به الأحوال ، وأقام بمدينة حمص وتوفي سنة ٥٨١ رحمه الله تعالى » . ومات غريباً عن وطنه وأهله ولسانُ حاله يقول :

قد قضَى اللهُ أن أموت غريباً   في بلاد أُساقُ كُرهاً إليها

في فؤادي مُخبّآتُ مَعانٍ   نَزَلَتْ آيةُ الحِجاب عليها !

وأكتفي بهذا القدر في هذا الجانب ، ثم أنتقل إلى :

الجانب الرابع

في أخبارهم في الجوع والعطش في الهواجر الأيامَ والساعات .

وأستهله بحديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، في فقره الذي كنتُ أشرت إليه في أول الجانب السابق ص ٤٩ .

٨٥ — روى البخاري في « صحيحه » في كتاب العلم في (باب حفظ العلم)

١ : ١٩٠ ، وفي أول كتاب البيوع ٤ : ٢٤٧ « عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن الناس يقولون : أكثر أبو هريرة من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدِّثون مثلَ أحاديثه ؟

ولولا آيتان في كتاب الله ما حدَّثتُ حديثاً ، ثم يتلو : ﴿ إنَّ الذين يَكتُمون ما أنزَلْنا من البيِّنات والهُدى من بعدِ ما بيَّناهُ للناسِ في الكتاب أولئك يَلعنُهم الله ويَلعنُهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلَحوا وبيَّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التوّابُ الرحيم ﴾ . ثم يقول أبو هريرة :

إنَّ إخواننا من المهاجرين كان يَشغلُهم الصَّفْقُ بالأسواق، وإنَّ إخواننا من الأنصار كان يَشغلُهم العملُ في أموالهم ، وإنَّ أبا هريرة كان يَلزَمُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لِشِبَعِ بطنه ، ويَحضُرُ ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون » . قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١ : ١٩٢ عند شرح هذا الحديث : « في هذا الحديث أن التقلل من الدنيا أمكنُ لحفظ العلم » . انتهى .

وأسوق بعد هذا طَرَفاً من أخبار العلماء في شدائد الجوع فأقول :

٨٦ — قال المؤرِّخ النسّابة ابن سعد في كتابه « الطبقات الكبرى » ٦ : ٣٧٢ ، وهو يتحدث عن الإمام سفيان الثوري المولود سنة ٩٧ والمتوفى سنة ١٦١ ، رحمه الله تعالى : « تَوارى سفيان الثوري من الخليفة العباسي المهدي ، لكلمةِ حقٍّ قالها فأغضبَتْ المهدي ، فطلبه ليُوقع به الأذى والعذاب ، فاختفى حيث كان بمكة ، وتَوارَى عن الناس ، ولَقِيه في تلك الأيام فَقْرٌ وضَنْكٌ شديدان ! وهو على هذه الحال من الفاقة والقلق ، بَعثَتْ إليه أختُه من الكوفة مع صاحبه أبي شهاب الحنّاط ، بجراب فيه كعك وخُشْكَنانَج (١) .

(١) أي أرغفة صغيرة يابسة . ولفظ (خشكنانج) مركب من كلمتين فارسيتين ، الأولى :

فقَدِمَ أبو شهاب الحنّاط مكة ، فسأل عن سفيان ، فقيل له : إنه ربما يقعُدُ دُبُرَ الكعبة مما يلي بابَ الحنّاطين ، قال أبو شهاب : فأتيتُه هناك — وكان لي صديقاً — فوجدته مستلقيا ، فسلّمتُ عليه ، فلم يُسائلني تلك المُساءَلة ، ولم يُسلِّم عليَّ كما كنتُ أعرفُ منه، فقلت له : إنَّ أختك بَعثَتْ إليك معي بجراب فيه كعك وخُشْكَنانَج ، قال : فعَجِّلْ به عليَّ ، واستوى جالساً !

فقلت : يا أبا عبد الله أتيتُك وأنا صديقك ، فسلّمتُ عليك فلم تَرُدَّ عليَّ ذاك الردَّ ، فلما أخبرتُك أني أتيتك بجرابِ كعكٍ لا يُساوي شيئاً جلستَ وكلّمتني ؟ !

فقال : يا أبا شهاب لا تَلُمْني ، فانَّ هذه لي ثلاثةَ أيام لم أذُق فيها ذواقاً ! قال أبو شهاب : فعَذَرْتُه » .

٨٧ — وقال ابن نُباتة المصري في « سَرْح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » ص ٢٢٨ ، وهو يترجم لإبراهيم بن سَيّار النظّام البصريّ المعتزلي المتوفى سنة ٢٢١ عن ٣٦ سنة ، أحدِ أذكياء العالم ، الذي قال فيه معاصرُه الجاحظ — والجاحظُ هو من هو— : الأوائلُ يقولون: في كل ألفِ سنةٍ رجلٌ لا نظيرَ له ، فانْ صحَّ ذلك فإبراهيمُ النظّامُ من أولئك .

قال ابن نُباتة : « حكى الجاحظ ، قال : تجاذبتُ يوماً وإبراهيمَ النظّام حديثَ الطِّيَرَة ، فقال لي : أُخبرك أني جُعتُ حتى أكلتُ الطين ! وما صرتُ إلى ذلك حتى قَلّبتُ قلبي ، أتذكّرُ هل ثَمَّ رجلٌ أُصيبُ عنده غداءً أو عشاءً ؟ ! فما قَدَرْتُ عليه ! وكان عليَّ جُبّة وقميص ، فبِعتُ القميص !

ثم قصدتُ الأهواز وما أعرف بها أحداً، وما كانذلك ناشئاً إلا عن الحَيْرَة

(نانك) المقلوبة كافُها جيماً عند النطق العربي بها ، ومعناها : الرغيف الصغير . والثانية : (خُشْك) ، ومعناها : اليابس . أفاد فيه شيخنا حبيب الرحمن الأعظمي حفظه الله تعالى .

والضَّجَر ، فوافيتُ الفُرْضَةَ(١) فلم أُصِب بها سفينة ، فتطيَّرتُ من ذلك ، ثم إني رأيتُ سفينةً في صدرها خَرْق وهَشْم فتطيَّرتُ أيضاً ، فقلت للملاّح : تَحملُني ؟ ، قال : نعم ، قلت : ما اسمُك ؟ قال : (دواداذ) وهو بالفارسية اسمُ الشيطان ، فتطيَّرتُ وركبتُ معه .

فلما قربتُ من الفُرضة صحتُ : يا حَمّال ، ومعي لحافٌ سَمَل (٢) ، ومُضرَّبةٌ خَلَق(٣) ، وبعضُ ما لا بد لي منه ، فكان أوّلُ حَمّال أجابني أعور ! فقلت لبقّال كان واقفاً : بكم تَكْري ثَوْرَك هذا إلى الخان ؟ فلما أدناه مني إذا هو أعْضَب (٤) ، فازدَدْتُ طِيَرةً إلى طِيَرة ! وقلت في نفسي : الرجوعُ أسلم ، ثم ذكرتُ حاجتي إلى أكل الطين ! وقلت : من لي بالموت ؟ ! !

فلما صرتُ إلى الخان وأنا حائر ما أصنع ، إذ سمعتُ قَرْعَ باب البيت الذي أنا فيه ، فقلت : مَنْ هذا ؟ فقال : رجلٌ يريدك ، فقلت : مَنْ أنا ؟ فقال : إبراهيمُ بن سيّار النظّام ، فقلت : هذا عدوٌّ أو رَسُولُ سلطان !

ثم إني تحاملتُ وفتحتُ له الباب ، فقال : أرسلَني إليك إبراهيم بن عبد العزيز ، ويقول لك : إنْ كُنّا اختلفْنا في المَقالة — أي في الرأي والمذهب — فانا نرجِعُ بعد ذلك إلى حُقوق الأخلاق والحُريّة ، وقد رأيتُك حيث مررتَ بي على حالٍ كرهتُها ، وينبغي أن تكون نزَعَتْ بك — أي أخرجتْكَ من بلدك — حاجة ، فان شئتَ فأقم بمكانك مُدّةَ شهرٍ أو شهرين ، فعسى نَبعثُ إليك ببعض ما يَكفيك زماناً من دهرك ، وإن اشتهيتَ الرجوع ، فهذه ثلاثون ديناراً فخُذْها وانصرف ، وأنت أحقُّ من عَذَر .

(١) هي فُرجة من النهر تركب منها السفن .
(٢) أي عتيق بال .
(٣) أي بالية أيضاً ، والمضرَّبة : هي غطاء كاللحاف ، ذو طاقين مخيطين خياطة كثيرة ، بينهما قطن ونحوه .
(٤) الأعضب : مكسور القرن ، وكانوا يتطيرون به .

قال : فورَدَ عليَّ أمرٌ أذهلَني ، أمّا واحدة : فاني لم أكن ملَكْتُ قبلُ في جميعِ دهري ثلاثين ديناراً ، والثانية : أنه لم يَطُل مُقامي وغَيْبَتي عن أهلي ، والثالثة : ما تَبيّن لي من الطِّيَرةِ أنها باطل » . انتهى .

قال عبد الفتاح : والرابعة — وقد فاتت النظّام — وهي تَعدِلُ الثلاثةَ مجتمعةً عندي ، وهي : ذاك النُّبْلُ النبيلُ ، والفَهْمُ الأصيلُ ، لحقوق الأخلاق والحُريّة والإنسانية ، فلم تَمنع مُخالفةُ النظّام في المقالة والرأي والمذهب لإبراهيم بن عبد العزيز : أن يُسعفَه عند محنته وإملاقه ، وأن يَمُدَّ له يدَ العون والمروءة والإنقاذ ؛ فتبَاعُدُه منه لله تعالى ، من أجل الاختلاف في المقالة والرأي ، وصِلتُه له من أجل رعايةِ حقوق الإنسانية والأخلاق ، وهي لله تعالى أيضاً ، وكلٌّ ذلك من الإسلام ، فذاك الحقُّ لا يَمنع هذا الحق ، فما أجملَ الفهمَ للشريعة وأحكامها ، وتنزيلَها مَنازلَها في الرضا والغضب ، مع الصديق والعدُوّ : « لا وَكْسَ ولا شَطَط » .

٨٨ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ٩٧٣ — ٩٧٤ في ترجمة الإمام (ابن المُقْرِئ محمد بن إبراهيم الأصبهاني) المولود سنة ٢٨٥ والمتوفى سنة ٣٨١ :

« رُوي عن أبي بكر بن علي قال : كان ابن المقرِيء يقول : كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ — ابن حَيّان — بالمدينة ، فضاق بنا الوقت — يعني فراغَ أيديهم من النفقة — ، فواصَلْنا ذلك اليوم — أي صاموا ذلك اليوم إلى صيام اليوم الذي قبله ! —

فلما كان وقت العشاء ، حضرتُ القبرَ وقلت : يا رسول الله الجوع ! فقال الطبراني : اجلِسْ ! فإما أن يكون الرزق أو الموت ! فقمتُ أنا وأبو الشيخ — أي قاما يصليان لله تعالى — ، فحضَرَ البابَ علَويٌّ ففتحنا له ، فإذا معه غلامان بقُفّتين فيهما شيء كثير ، وقال : شكوتموني إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، رأيتُه في النوم فأمَرَني بحَمْلِ شيء إليكم » .

٨٩ — وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه « ذيل طبقات الحنابلة » ١ : ١٩٦ في ترجمة (القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي البغدادي) البزّاز الأنصاري ، المتوفى سنة ٥٣٥ ببغداد : « قال الشيخ الصالح أبو القاسم الخزّاز الصوفي البغدادي : سمعتُ القاضي أبا بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد البزّاز الأنصاري يقول :

كنت مجاوراً بمكة حرسها الله تعالى ، فأصابني يوماً من الأيام جوعٌ شديد لم أجد شيئاً أدفع به عني الجوع ، فوجدتُ كيساً من إبريسَم مشدوداً بشُرّابة من إبريسَم أيضاً ، فأخذتُه وجئتُ به إلى بيتي ، فحللتُه فوجدتُ فيه عِقداً من لؤلؤ لم أرَ مثلَه .

فخرجتُ فإذا بشيخٍ يُنادي عليه، ومعه خِرقة فيها خمسُ مئة دينار، وهو يقول : هذا لمن يَرُدُّ علينا الكيسَ الذي فيه اللؤلؤ ، فقلتُ : أنا محتاج ، وأنا جائع ، فآخُذُ هذا الذهب فأنتفع به ، وأرُدُّ عليه الكيس .

فقلت له : تعال إليَّ ، فأخذتُه وجئتُ به إلى بيتي ، فأعطاني علامَةَ الكيس ، وعلامةَ الشُرّابة ، وعلامةَ اللؤلؤ ، وعَدَدَه ، والخيط الذي هو مشدود به ، فأخرجته ودفعتُه إليه ، فسلّم إليَّ خمسَ مئة دينار ، فما أخذتُها ، وقلت : يجبُ عليَّ أن أُعيده إليك ، ولا آخذَ له جزاءاً ، فقال لي : لا بُدَّ أن تأخذ وألحَّ عليَّ كثيراً ، فلم أقبل ذلك منه ، فتركني ومَضَى .

وأما ما كان مني ، فاني خرجتُ من مكة وركبتُ البحر ، فانكسر المركب وغَرِقَ الناس ، وهلكَتْ أموالُهم ، وسَلِمتُ أنا على قطعة من المركب ، فبقيتُ مُدّةً في البحر لا أدري أين أذهب ؟ ! فوصلتُ إلى جزيرة فيها قوم ، فقَعَدتُ في بعض المساجد ، فسمعوني أقرأ ، فلم يبق في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إليَّ وقال : علّمني القرآن ، فحصَلَ لي من أولئك القوم شيء كثير من المال .

ثم إني رأيتُ في ذلك المسجد أوراقاً من مصحف ، فأخذتُها أقرأ فيها ،

فقالوا لي : تُحسِنُ تكتب ؟ فقلت : نعم ، فقالوا : علِّمنا الخط ، فجاؤوا بأولادهم من الصبيان والشباب ، فكنت أُعلِّمُهم ، فحصل لي أيضاً من ذلك شيء كثير ، فقالوا لي بعد ذلك : عندنا صَبِيّةٌ يتيمة ، ولها شيء من الدنيا ، نريد أن تتزوَّج بها ، فامتنعتُ ، فقالوا : لا بد ، وألزموني فأجبتهم إلى ذلك .

فلما زَفُّوها إليَّ مَدَدْتُ عينيَّ أنظرُ إليها ، فوجدتُ ذلك العِقْدَ بعينه معلّقاً في عُنُقِها ، فما كان لي حينئذ شُغل إلا النظرَ إليه ، فقالوا : يا شيخ كسرتَ قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العِقد ، ولم تنظر إليها ، فقَصَصتُ عليهم قِصَّةَ العِقد ، فصاحوا وصرَّخوا بالتهليل والتكبير ، حتى بلَغَ إلى جميع أهل الجزيرة ، فقلتُ : ما بكم ؟ فقالوا : ذلك الشيخُ الذي أخَذَ منك العِقدَ أبو هذه الصَّبِيَّة ، وكان يقول : ما وجدتُ في الدنيا مُسْلِماً إلا هذا الذي رَدَّ عليَّ هذا العِقد ، وكان يدعو ويقول : اللهم اجمع بيني وبينه حتى أُزوِّجَه بابنتي ، والآن قد حصَلَتْ ، فبقيتُ معها مدة ، ورُزِقتُ منها بولدين .

ثم إنها ماتت فورِثْتُ العقد أنا وولداي ، ثم مات الولدان ، فحصَلَ العقدُ لي، فبعته بمئة ألفِ دينار ، وهذا المال الذي ترونه معي من بقايا ذلك المال » .

٩٠ — وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه « ذيل طبقات الحنابلة » ١ : ٢٩٨ في ترجمة (الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني) شيخ الطريقة المنسوبة إليه المتوفى سنة ٥٦١ رحمه الله تعالى :

« قال الشيخ عبد القادر : وكنتُ أقتاتُ بخُرنوب الشوك ، وقُمامة البَقْل وورَق الخَسّ من جانب النهر والشط ، وبلغَتْ الضائقةُ في غلاءٍ نزل ببغداد إلى أن بَقيتُ أياماً لم آكل فيها طعاماً ، بل كنت أتتبّعُ المنبوذات أطعَمُها .

فخرجتُ يوماً من شدة الجوع إلى الشطّ ، لعلي أجِدُ ورق الخَسّ أو البقل أو غيرَ ذلك فأتقوَّتَ به؟ فما ذهبتُ إلى موضع إلا وغيري قد سبقني إليه ! وإن وجدتُ أجِدُ الفقراءَ يتزاحمون عليه فأتركه حُبّاً .

فرجعتُ أمشي وسط البلد فما أُدرِكُ منبوذاً إلا وقد سُبِقتُ إليه ، حتى وصلتُ إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد ، وقد أجهدني الضعف ، وعجزتُ عن التماسك ، فدخلتُ إليه وقعدت في جانبٍ منه ، وقد كدت أصافح الموت ! إذ دخل شاب أعجمي ، ومعه خبز صافٍ وشِواء ، وجلس يأكل ، فكنتُ أكادُ كلما رَفَع يده باللقمة أفتح فمي من شدة الجوع ، حتى أنكرتُ ذلك على نفسي فقلت : ما هذا ؟ ! وقلت : ما ها هنا إلا الله أو ما قَضَاهُ من الموت !

إذ التفت إليَّ العجمي فرآني فقال : بسم الله يا أخي . فأبيتُ فأقسمَ عليَّ فبادَرَتْ نفسي فخالفتُها ، فأقسمَ أيضاً فأجبتُه فأكلتُ متقاصراً ، فأخذ يسألني : ما شُغْلُك ؟ ومن أين أنت ؟ وبمن تُعرَف ؟ فقلت : أنا متفقِّه من جيلان ، فقال : وأنا من جيلان ، فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر ، يعرف بسبط أبي عبد الله الصَّوْمَعِيِّ الزاهد ؟ فقلت : أنا هو .

فاضطرب وتغيّر وجهُهُ وقال : والله لقد وصلتُ إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي ، فسألتُ عنك فلم يُرشِدني أحد ، ونَفِدَتْ نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجِدُ ثمنَ قُوْتي إلا ما كان لك معي ، وقد حلّت لي الميتة ، وأخذتُ من وديعتك هذا الخبزَ والشواء ، فكُلْ طيِّباً ، فإنما هو لك وأنا ضيفُك الآنَ بعد أن كنتَ ضيفي .

فقلت له : وما ذاك ؟ فقال : أمُّك وجّهَتْ لك معي ثمانية دنانير ، فاشتريتُ منها للاضطرار فأنا معتذر إليك ، فسكّنْتُه وطيّبتُ نفسَه ، ودفعتُ إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة ، فقبِلَه وانصرف » .

٩١ — وقال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه « صيد الخاطر » ٢ : ٣٣٠ متحدثاً عن الشدائد التي نالته في بدء طلبه للعلم ، وعن مَحامِدِ صبره على تلك الشدائد :

« ولقد كنتُ في حلاوةِ طلبي العلمَ ، ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل ، لأجْلِ ما أطلب وأرجو .

كنتُ في زمن الصِّبا آخذُ معي أرغفةً يابسة ، فأخرج في طلب الحديث ، وأقعدُ على نهر عيسى — في بغداد — ، فلا أقدِرُ على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلتُ لقمة شربتُ عليها ، وعينُ هِمّتي لا ترى إلا لذّةَ تحصيلِ العلم ، فأثمر ذلك عندي أني عُرِفتُ بكثرة سماعي لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله وآدابه ، وأحوالِ أصحابه وتابعيهم » .

٩٢ — وقال أيضاً : « ولم أقنع بفنّ واحد ، بل كنتُ أسمع الفقه والحديث ، وأتّبِع الزُّهّاد ، ثم قرأتُ اللغة ، ولم أترك أحداً ممن يَروي ويعظ ، ولا غريباً يَقدَمُ إلا وأَحضُرُه ، وأتخيَّر الفضائل .

ولقد كنتُ أدور على المشايخ لسماع الحديث ، فينقطع نَفَسي من العَدْو لئلا أُسبَق ، وكنت أصبح وليس لي مأكل ! وأمسي وليس لي مأكل ! ما أذلّني الله لمخلوقٍ قط ، ولو شرحتُ أحوالي لطال الشرح » . انتهى من مقدمة الأستاذ علي الطنطاوي لكتاب « صيد الخاطر » ص ٢٧ .

٩٣ — وأختم الحديث عن هذا الجانب بخبر جُوع شيخنا الإمام (شيخ الإسلام مصطفى صبري) آخرِ شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية ، المتوفى سنة ١٣٧٣ رحمه الله تعالى ، فانه حين هاجر بدينه من تركيا ، بعد أن وقَفَ من طاغيتها : مصطفى كمال الموقفَ المشرِّفَ الشجاع ، وترامَتْ به البلاد ثم استقرَّ في مصر ، على فاقة وإملاق شديدين ، مع التجمُّلِ في الظاهر والتجلُّد للشدائد ، نَشرَتْ الصُّحفُ العالمية خبَرَ صيام (غاندي) زعيم الهند ، احتجاجاً على سياسة الإنجليز في بلاده ، فارتَجّتْ بهذا النبأ أرجاءُ العالم ، واستُعظِمَ النبأُ كلَّ الاستعظام .

فأنشأ شيخنا رحمه الله تعالى أبياتاً ، قارَن فيها بين جُوعِه الدائم الصامت

وجُوعِ غاندي العابر الصاخب ، إذ تحدَّثتْ عنه صحفُ العالم فقال :

صام شيخُ الهند الحديثةِ غنْدي   صَوْمَةَ المستميتِ والمتحدّي
وأراني على شفَا الموتِ أدعَى   شيخَ الاسلام بَلْهَ هندٍ وسِنْدِ
غيرأن الصومين بينهما فَرْ   قٌ عجيب أُبديه من غير رَدِّ
صام مع وُجْدِه وصُمتُ لعُدمٍ   دام مُذْ ضِفتُ مِصركالضيفِ عندي
وغدا صومُه حديثَ جميع النا   سِ ، أمّا صومي فأدريه وحدي !
في سبيل الإسلام ما أنا لاقٍ   ولئن متُّ فليعِشْ هو بعدي
فليعِشْ رغمَ مسلمي العصرِ دينٌ   ضيّعوه ولم يفوه بعهد
كان مثلي يموت جُوعاً ولا يُعْـــرَفُ لو كان شيخَهم شيخُ هند !

أما أخبارهم في العطش فهي كثيرة ، أكتفي منها بما يلي :

٩٤ — رَوَى الحافظ الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٣ : ٣١٧ والحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٢ : ٦٥٢ في ترجمة (الإمام محمد بن نصر المَرْوَزي) المولود سنة ٢٠٢ والمتوفى سنة ٢٩٤ : رَوَيا بسندهما إلى أبي عمرو عثمان بن جعفر بن اللبان قال :

« حدثني محمد بن نصر المروزي ، قال : خرجتُ من مصر ومعي جارية لي ، فركبت البحر أُريدُ مكة ، فغرِقتْ فذهبَ مني ألفا جُزء ! وصِرتُ إلى جزيرة أنا وجاريتي ، فما رأينا فيها أحداً ، وأخذَني العطش فلم أقدر على الماء وأُجهدتُ ، فوضعتُ رأسي على فخذِ جاريتي مستسلماً للموت ، فاذا رجلٌ قد جاءني ومعه كُوز ، فقال لي اشرب ، فأخذتُ فشربتُ وسَقيتُ الجارية ، ثم مضى ، فما أدري من أين جاء ولا من أين ذهب ؟ » .

٩٥ — وقال الحافظ الذهبي في « العِبَر في خَبَر من غَبَر » ٢ : ٧٠ ، وفي « ميزان الاعتدال » ٢ : ٦٠٠ « وفي سنة ٢٨٣ توفي أبو محمد عبد الرحمن

ابن يوسف بن خِراش المروزي ثم البغدادي ، وكان حافظ زمانه ، له الرحلة الواسعة ، قال بكر بن حمدان المروزي : سمعتُ ابنَ خِراش يقول : شربتُ بولي في طلب هذا الشأن — يعني طلب الحديث — خمسَ مرات » . انتهى .

وذلك أنه كان يمشي في الفَلَوات والقِفار لتحصيل الحديث وتلقيه عن أهله ، فينالُه العطشُ الشديد في طريقه !

وسيأتي في ضِمن الخبر — ١٠٦ — في ص ٨٤ عن الإمام أبي حاتم الرازي : أنه فَنِيَ معه الزادُ والماء أياماً حين تِيهِهِ في البر ، حتى سقط هو وأحدُ رفيقيه مغشياً عليهما !

وأنتقل بعد هذا إلى :

الجانب الخامس

في أخبارهم في العُرْي الدائم ونَفاد المال والنفقات في الغُرُبات .

وإن قارىء هذه الأخبار أو سامِعَها ليعجب من أولئك العلماء الأجلاء ، كيف تحمّلت قلوبُهم ما نَزَل بهم من الشدائد والرزايا ، التي يتململ الإنسان عند سماعها ، ولكنها كانت قلوباً عامرةً بالإيمان بالله ، راجيةً ما عنده من رضوان وثواب ، فهان عليها في سبيل مرضاته كلُّ صعب وشديد .

٩٦ — حكى الخطيب البغدادي في ترجمة الإمام البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ في « تاريخ بغداد » ٢ : ١٣ قال « قال عمر بن حفص الأشقر : إنهم فقدوا البخاري أياماً من كتابة الحديث بالبصرة ، قال : فطلبناه فوجدناه في بيتٍ وهو عُرْيان ، وقد نَفِدَ ما عنده ولم يبق معه شيء ، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوباً وكسوناه ، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث » .

٩٧ — وقال الخطيب البغدادي في ترجمة (أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن الأَبِيوَرْدِي) الفقيه : كان متجمِّلاً في فاقة : يقال : إنه مكَثَ

سنين لا يقدر على شراء جُبّة يلبسها في الشتاء ، ويقول لأصحابه : لي علّة تمنعني لُبْسَ المحشوّ [١] .

٩٨ — وقال التاج السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » ٣ : ٩٠ في ترجمة (الإمام أبي إسحاق الشيرازي) إبراهيم بن علي ، المولود سنة ٣٩٣ ، والمتوفى سنة ٤٧٦ ببغداد رحمه الله تعالى ، وكان إمام الشافعية في عصره غيرَ مُدافَع : « قال أبو العباس الجُرجاني : كان أبو إسحاق الشيرازي لا يَمْلِك شيئاً من الدنيا ، فبلَغَ به الفقر مبلغَه ، حتى كان لا يجد قُوتاً ولا مَلْبساً !

ولقد كنا نأتيه وهو ساكن في القَطيعة — حيّ من أحياء بغداد — ، فيقوم لنا نصفَ قومة ، ليس يَعتدِلُ قائماً من العُري ، كي لا يظهر منه شيء » .

٩٩ — قيل : وكان إذا بقي مدة لا يأكل شيئاً ، جاء إلى صديق لـه باقِلاّني — أي فَوّال — ، فكان يَثْرُدُ له رغيفاً — أي يَفُتُّه — ويَثْرِيه — أي يَبُلُّهُ ويُلَيِّنُه — بماء الباقِلاء . فربما أتاه وكان قد فَرَغ من بيع الباقِلاء ! فيقف أبو إسحاق ويقول : تلك إذاً كرّةٌ خاسرة ! ويرجع ! ! » .

والإمام أبو إسحاق الشيرازي هذا ، هو قائل البيتين السائرين :

سألتُ الناسَ عن خِلٍّ وَفِيٍّ ... فقالوا : ما إلى هذا سبيلُ !
تَمسَّكْ إن ظَفِرتَ بذَيْلِ حُرٍّ ... فانّ الحُرَّ في الدنيا قليلُ [٢] !

١٠٠ — وقال القاضي ابن خلكان في « الوفيَات » ١ : ٢٣٤ في ترجمة (القاضي أبي الطيب طاهر بن عبدالله الطبري) رحمه الله تعالى : «حكى المؤرِّخ

(١) ما أحسن قوله : (لي علة تمنعني لبس المحشو) ، فانه من الإيهام والتورية اللطيفة ، والعلة هي علة الفقر الذي لا يفارقه ! ذكره الدَّلَجي في « الفلاكة والمفلوكون » .

(٢) سُئل الإمام الشافعي رضي الله عنه عن تعريف (الحُرّ) ، فقال : « الحُرُّ من راعَى ودادَ لحظة ، وانتمَى لمن أفاده لفظة » . كما نقله الشيخ الباجوري في حاشيته على «السنوسية» في التوحيد ص ٤٢ .

النسّابة السمعاني في «الذيل» عن شيخه (أبي إسحاق علي بن أحمد اليَزْدِي) أنه كان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه ، إذا خرَجَ ذاك قعَدَ هذا في البيت ، وإذا خرج هذا احتاج ذاك أن يَقْعُد !

قال السمعاني : وسمعتُه يقول يوماً ، وقد دخلتُ عليه دارَه مع علي بن الحسين الغَزْنَوي الواعظ مُسَلِّماً عليه ، فوجدناه عُرْياناً متأزِّراً بمِئْزر ، فاعتذر من العُري وقال : نحن إذا غسَلْنا ثيابَنا ، نكونُ كما قال القاضي أبو الطيب الطبري :

قومٌ إذا غَسَلوا ثيابَ جمالِهم ... لَبِسوا البيوتَ إلى فراغ الغاسِلِ ! » .

١٠١ — وقال سفيان بن عيينة : سمعتُ شعبةَ بنَ الحجّاج يقول : من طلَبَ الحديثَ أفلَس ، بعتُ طَسْتَ أمي بسبعةِ دنانير . حكاه الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ١ : ١٩٥ .

١٠٢ — وجاء في «المنهج الأحمد» لأبي اليُمن العُلَيمي الحنبلي ، في ترجمة (الإمام أحمد) فيه ١ : ٨ « خرج الإمام أحمد إلى عبد الرزاق . بصنعاء اليمن سنة سبع وتسعين ومئة ، ورافق يحيى بنَ معين — في هذه الرحلة — .

قال يحيى : لما خرجنا إلى عبد الرزاق إلى اليَمَن ، حججنا ، فبينـا أنا بالطواف إذا بعبد الرزاق في الطواف ، فسلّمتُ عليه وقلتُ له : هذا أحمد بن حنبل أخوك ، فقال : حيّاه الله وثبّتَه ، فانه يَبلُغني عنه كلُّ جميل ، فقلتُ لأحمد : قد قرَّب الله خُطانا ، ووفّر علينا النفقة ، وأراحنا من مسيرة شهر ، فقال أحمد : إني نويتُ ببغداد أن أسمع من عبد الرزاق بصنعاء ، والله لا غيّرتُ نيّتي .

قال يحيى فلما خرجنا إلى صنعاء ، نَفِدَتْ نفقةُ أحمد ، فعرَضَ علينا عبدُ الرزاق دراهم كثيرة فلم يقبلها ، فقال له : اقبلها على وجه القرض فأبى ، وعرَضْنا عليه — أي على أحمد — نفقاتِنا فلم يقبل ، فاطّلعنا عليه وإذا به يعمل التِّكَكَ ويُفطِرُ على ثمنها » .

١٠٣ — ثم قال العُلَيمي ١ : ١٤ « ولما كان أحمد باليمن رهَنَ سَطْلاً عند بقّال بحضور سُليمان بن داود الشاذَكُوني(١) ، وأخَذَ منه ما يَتَقَوَّتُ به ، ثم جاءه بفَكاكه ، فأخرجَ إليه سَطْلين . فقال : أيُّهما سَطْلُك فخذه ، فقال : قد اشتبَه علي ، أنت في حِلٍ من السَّطْل وفَكاكه ، فقال الشاذَكُوني للبقّال : أخرجتَ سطلين إلى رجل من أهل الورع ، والسُّطُول تتشابه ، فقال: والله إنه لسطلُه بعينه ، وإنما أردتُ امتحانَه ».

١٠٤ — ونَقَل القاضي ابن أبي يعلى في « طبقات الحنابلة » ١ : ٢٠٩ في ترجمة (عبد الرزاق بن هَمّام الصنعاني) شيخ الإمام أحمد، وابنُ الجوزي في « مناقب الإمام أحمد » ص ٢٢٦ : « أن عبد الرزاق ذكَرَ أحمدَ بن حنبل فدمعت عيناه ، ثم قال : قدِمَ علينا فأقام ها هنا سنتين إلا شيئاً .

وبلَغَني أن نفقتَه نَفِدَتْ ، فأخذتُ بيده فأقمتُه خلف الباب ، وأشار إلى بابه ، وما معي ومعه أحد ، فقلت : إنه لا يجتمع عندنا الدنانير ، وإذا بعنا الغَلّة شغلناها في شيء ، وقد وجدتُ عند النساء عشرةَ دنانير فخُذها ، فأرجو أن لا تنفقها حتى يتهيأ عندنا شيء . قال : فقال لي أحمد : يا أبا بكر لو قبلتُ شيئاً من الناس قبلتُ منك » .

ثم نقل ابن الجوزي « عن إسحاق بن راهويه ، قال : لما خرج أحمد إلى عبد الرزاق انقطعَتْ به النفقة ، فأكرى نفسه من بعض الجَمّالين إلى أن وافى صنعاء ، وقد كان أصحابُه عَرَضوا عليه المُواساةَ فلم يَقبل من أحد شيئاً .

وقال أحمد بن سِنان الواسطي : بلغني أن أحمد رهن نَعْلَه عند خباز على طعام أخذه منه ، عند خروجه من اليمن » . انتهى . ونحو هذا في « الحلية » لأبي نعيم ٨ : ١٧٤ — ١٧٥ .

(١) هكذا الصواب : سُلَيمان بن داود ... ، كما جاء في « طبقات الحنابلة » لابن أبي يعلى ١ : ١٦٣ ، و« مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي ص ٢٥٩ . ووقع في « المنهج الأحمد » للعليمي : (أحمد بن داود) وهو تحريف فاجتنبه .

١٠٥ — وحكى التاج السبكي في « طبقات الشافعية » ٢ : ٢٢٧ في ترجمة الإمام(البخاري)، والحافظ ابن حجر في مقدمة « فتح الباري» المسماة : « هدي الساري » ٢ : ١٩٥ قال : « قال ورّاقُ البخاري محمد بن أبي حاتم : سمعته يقول : خرجت إلى آدم بن أبي إياس — في عسقلان — ، فتأخّرَتْ نفقتي حتى جعلتُ أتناول حشيش الأرض ، ولا أُخبِرُ بذلك أحداً ، فلما كان اليوم الثالث أتاني رجل لا أعرفه ، فأعطاني صُرّةً فيها دنانير وقال : أنفِقْ على نفسك » .

١٠٦ — وقال الحافظ الإمام ابن أبي حاتم الرازي في كتابه « تقدمة الجرح والتعديل» في ترجمة والده(الإمام أبي حاتم محمدبن إدريس الرازي) ص ٣٦٣ : (بابُ ما لقي أبي من المقاساة في طلب العلم من الشدة) : « سمعتُ أبي يقول : بقيتُ بالبصرة في سنة أربع عشرة ومئتين : ثمانيةَ أشهر ، وكان في نفسي أن أقيم سنة ، فانقطَعَتْ نفقتي ، فجعلت أبيع ثيابَ بَدَني شيئاً بعد شيء ، حتى بَقِيتُ بلا نفقة ! ومضيتُ أطوفُ مع صديق لي إلى المشيَخة ، وأسمعُ منهم إلى المساء ، فانصرف رفيقي ورجعتُ إلى بيتٍ خالٍ ، فجعلتُ أشرب الماء من الجوع !

ثم أصبحتُ من الغد وغدا عليّ رفيقي ، فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جُوع شديد ، فانصرف عني وانصرفتُ جائعاً ، فلما كان من الغد غدا عليّ فقال : مُرَّ بنا إلى المشايخ ، فقلت :أنا ضعيف لا يمكنني ، قال : ما ضعفُك ؟ قلت : لا أكتمك أمري ، قد مضى يومان ما طَعِمْتُ فيهما شيئاً ، فقال لي : قد بقي معي دينار ، فأنا أواسيك بنصفه ، ونجعل النصف الآخر في الكِراء ، فخرجنا من البصرة ، وقبضتُ منه النصفَ دينار » .

ثم قال ابن أبي حاتم : « سمعتُ أبي يقول : لما خرجنا من المدينة من عند داود

الجعفري ، صِرنا إلى الجار[١] ، وركبنا البحر ، وكنا ثلاثة أنفس : أبو زهير المَرْوَرُوذِيّ شيخ ، وآخر نيسابوري .

ولما كنا في البحر احتَلمتُ ، فأصبحتُ وأخبرتُ أصحابي بذلك ، فقالوا لي : اغمِس نفسك في البحر ، قلت : إني لا أُحسِنُ أن أَسْبَح ، فقالوا : إنا نشُدُّ فيك حبلاً ونَدْلُوك في الماء ، فشَدّوا في حبلاً وأرسلوني في الماء ، وأنا في الماء أُريدُ إسباغَ الوضوء ، فلما توضّأتُ قلت لهم : أرسلوني قليلاً ، فأرسلوني ، فغَمَسْتُ نفسي في الماء فقلتُ : ارفعوني فرفعوني .

وركبنا البحر ثم مشينا فكانت الريحُ في وجوهنا ، فبقينا في البحر ثلاثةَ أشهر ! وضاقت بنا صدورُنا ، وفنِيَ ما كان معنا من الزاد ، وبقيَتْ بقية ، فخرجنا إلى البر ، فجعلنا نمشي أياماً على البر ، حتى فني ما كان معنا من الزاد والماء ! .

فمشينا يوماً وليلة لم يأكل أحدٌ منا شيئاً ولا شربنا ، واليومَ الثاني كمِثل ، واليومَ الثالث ، كلَّ يوم نمشي إلى الليل ، فإذا جاء المساء صَلّينا وألقينا بأنفسنا حيث كنا ، وقد ضَعُفَتْ أبدانُنا من الجوع والعطش والعَيَاء ، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا ، فسقَطَ الشيخ المَرْوَرُوذي مغشياً عليه ، فجئنا نحركه وهو لا يعقل ، فتركناه !

ومشينا أنا وصاحبي النيسابوري قَدْرَ فَرْسَخ أو فرسخين[٢] ، فضَعُفتُ وسقطتُ مغشياً علي ، ومضى صاحبي وتركني !

فلم يزل هو يمشي إذ بَصُرَ من بعيد قوماً قد قرَّبوا سفينتَهم من البر ، ونزلوا على بئر موسى صلى الله عليه وسلم ، فلما عاينهم لَوَّحَ بثوبه إليهم ،

(١) في « القاموس » الجار موضع بينه وبين المدينة الشريفة يوم وليلة ، وقرية بأصبهان ، وقرية بالبحرين .

(٢) الفرسخ يمشي القدم ساعة ونصف ، وهو يزيد على خمسة كيلومترات .

فجاؤه معهم الماءُ في إداوة فسقَوْه وأخذوا بيده ، فقال لهم : الحقوا رفيقين لي قد ألقوا بأنفسهم مغشياً عليهم ، فما شعرتُ إلا برجل يصب الماء على وجهي ، ففتحتُ عيني فقلت : اسقني ، فصَبَّ من الماء في ركوة أو مشربة شيئاً يسيراً ، فشَرِبتُ ورجعَتْ إليَّ نفسي ، ولم يُرْوِني ذلك القدر ، فقلت : اسقني فسقاني شيئاً يسيراً وأخذ بيدي .

فقلتُ : ورائي شيخ مُلْقىً ! قال : قد ذهب إلى ذاك جماعة ، فأخَذَ بيدي وأنا أمشي أجر رجليَّ ، ويَسقِيني شيئاً بعد شيء ، حتى إذا بلغتُ إلى سفينتهم ، وأتَوْا برفيقي الثالث الشيخ ، أحسن إلينا أهلُ السفينة ، فبقينا أياماً حتى رجعَتْ إلينا أنفسُنا .

ثم كتبوا كتاباً إلى مدينة يقال لها : راية[١] ، إلى واليهم ، وزوّدونا من الكعك والسَّوِيق والماء ، فلم نَزَلْ نمشي حتى نَفِدَ ما كان معنا من الماء والسَّوِيق والكعك ، فجعلنا نمشي جياعاً عِطاشاً على شَطّ البحر ، حتى وقعنا إلى سُلَحْفاة قد رَمَى بها البحر مثلَ التُّرْس ، فعَمَدْنا إلى حجر كبير فضربنا على ظهرها فانفلق ظهرها ، وإذا فيها مِثْلُ صُفْرة البيض ، فأخذنا من بعض الأصداف الملقاة على شط البحر ، فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر فنتحسّاه ، حتى سكن عنا الجوعُ والعطش .

ثم مررنا وتحملنا حتى دخلنا مدينة الراية ، وأوصلنا الكتاب إلى عاملهم ، فأنزلَنا في داره ، وأحسن إلينا ، وكان يُقدِّمُ إلينا كلَّ يوم القَرَع ، ويقول لخادِمِه : هاتِي لهم اليقطينَ المبارك ، فقدَّمَ إلينا من ذلك اليقطين مع الخبز أياماً ، فقال واحدٌ منا بالفارسية : ألا تَدْعُو — لنا — باللَّحْم المشؤوم؟ ! وجعَلَ يُسمِعُ الرجلَ صاحبَ الدار ، فقال : أنا أُحسِنُ الفارسية ، فانَّ

(١) هي راية القُلْزُم ، كورة من كور مصر القبلية . كما في « معجم البلدان » .

جدّتي كانت هَرَوية ، فأتانا بعد ذلك باللحم ، ثم خرجنا من هناك وزوّدنا إلى أن بلغنا مصر » .

١٠٧ — وقال الحافظ الذهبي في « العِبَر » ٢ : ٥٨ ، والحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » ١١ : ٣٨٦ في ترجمة (يعقوب بن سفيان الفارسي الفَسَوي الحافظ) المتوفى سنة ٢٧٧ « قال أبو إسحاق بن حمزة عن أبيه قال :

قال لي يعقوب بن سفيان : أقمت في الرحلة ثلاثين سنة . وكنتُ في رحلتي فقَلّتْ نفقتي ! فكنت أُدمِن الكتابة ليلاً ، وأقرأ نهاراً ، فلما كان ذاتَ ليلة كنت جالساً أنسخُ في السِّراج ، وكان شتاء ، فنَزَل الماء في عَيْنَيَّ فلم أبصر شيئاً ! فبكيتُ على نفسي لانقطاعي عن بلدي ، وعلى ما فاتني من العلم !

فغلبتني عيناي ، فرأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فناداني : يا يعقوب لم أنت بكيتَ ؟ فقلت : يا رسول الله ذَهبَ بصري فتحسّرتُ على ما فاتني ، فقال لي : ادْنُ مني فدنوتُ منه ، فأمَرّ يدَه على عينيَّ كأنه يقرأ عليهما ، ثم استيقظت فأبصرت ، فأخذتُ نُسَخي وقعدتُ أكتب . وتوفي سنة ٢٧٧ رحمه الله تعالى عن بضع وثمانين سنة » .

١٠٨ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٢:٧٦٨ ، في ترجمة (الحافظ أبي بكر عبد الله ابنِ الإمام الحافظ أبي داود السجستاني) المولود سنة ٢٣٠ ، والمتوفى سنة ٣١٦ : « قال : دخلتُ الكوفة ومعي درهم واحد ، فاشتريت به ثلاثين مُدّاً باقلاء ، فكنت آكل منه وأكتب عن الأشَجّ — عبد الله بن سعيد الكِنْدي محدِّث الكوفة — ، فما فرَغ الباقِلاءُ حتى كتبتُ عنه ثلاثين ألفَ حديث ما بين مقطوع ومرسل » .

١٠٩ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ١٠٧٥ في ترجمة الإمام الحافظ شيخ الفقهاء والمحدثين (أبي بكر أحمدَ بن محمد البَرْقاني) شيخ بغداد ، المولود سنة ٣٣٦ والمتوفى سنة ٤٢٥ ببغداد رحمه اللهُ تعالى ، قال

فيها : « قال البَرْقاني : دخلتُ إسفرايين ومعي ثلاثة دنانير ودرهم ، فضاعت الدنانير وبقي الدرهم ! فدفعتُه إلى خبّاز ، فكنت آخُذُ منه كلّ يوم رغيفين ، وآخذ من بِشر بن أحمد جزءاً فأكتبه وأفرَغُه بالعشي ، فكتبت ثلاثين جزءاً ، ونفِدَ ما عند الخبّاز فسافرتُ ! » .

١١٠ — وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٤ : ١١٧٣ في ترجمة (الإمام الحافظ الجوّال أبي علي الحسن بن علي البلخي الوَخْشِي) المتوفى سنة ٤٧١ ببلخ « قال الوَخْشِي يوماً : سمعتُ ورَحَلْتُ وقاسَيْتُ المشاقّ ، والذُّلّ ، ورَجعتُ إلى وَخْش — وَخْش قرية من أعمال بَلْخ — ، وما عَرَف أحد قدري ، ولا فَهِم ما حصّلتُه ! فقلتُ : أموتُ ولا ينتشر ذِكري ولا يترَحّمُ أحدٌ علي ، فسهّل الله ووَفّق نِظامَ المُلك حتى بنى هذه المدرسة — في وَخْش — وأجلسني فيها حتى أُحدّث .

لقد كنتُ بعسقلان أَسمَعُ من ابن مُصَحِّح وغيره ، فضاقت عليّ النفقةُ وبقيتُ أياماً بلا أكل ، فأخذتُ لأكتب فعجزت ! فذهبتُ إلى دكانِ خباز وقعدتُ بقربه لأشَمّ رائحة الخبز وأتقوّى بها ! ثم فتَحَ الله علي » .

وأختتم الحديث عن هذا الجانب بذكر حادثة الإمام محمد بن جرير الطبري ، الذي قُسِمَتْ مؤلّفاتُه على أيام عمره من ولادته إلى وفاته ، فكان نصيبَ كل يوم من حياته أربعةُ كراريس .

١١١ — قال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٢ : ٧١١ ، والتاج السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » ٣ : ١٢٥ في ترجمة (الإمام محمد بن جرير الطبري) : « قال أبو محمد الفَرْغاني — تلميذُ ابن جرير — :

كان محمد بن جرير لا تأخذه في الله لَوْمَةُ لائم ، مع عِظَم ما يُؤذَى ، فأمّا أهلُ الدين والعلم فغيرُ منكرين علمَه وزُهدَه ، ورَفْضَه للدنيا ، وقناعتَه بما يجيئه من حصّةٍ خلّفها له أبوه بطَبَرِسْتان .

قال: ورحَلَ محمد بن جرير لما ترعرع من آمُل، وسَمَحَ له أبوه بالسفر، وكان أبوه طولَ حياته يُوجِّهُ إليه بالشيء بعد الشيء إلى البلدان، فسمعتُه يقول: أبطأتْ عني نفقةُ والدي، واضطُرِرتُ إلى أن فتَقْتُ كُمَّيْ قميصي فبعتُهما».

والإمامُ ابن جرير هو القائل ــ كما في «كنوز الأجداد» ص ١٢٠ للأستاذ محمد كرد علي ــ:

إذا أعسرتُ لم يَعلم رَفيقـــي ... وأستغني فيَستغني صَديقـــي

حيائي حافظٌ لي ماءَ وجهـــي ... ورِفْقِي في مُطالبَتِي رَفيقي

ولو أني سَمحتُ ببَذْلِ وَجْهي ... لكنتُ إلى الغِنَى سَهْلَ الطريقِ

وهو الذي يقول أيضاً:

خُلُقان لا أرضَى طريقَهمـــا ... بَطَرُ الغِنَى ومَذَلّةُ الفَقْـــرِ

فإذا غَنيتَ فلا تكن بَطِراً ... وإذا افتقرتَ فتِهْ على الدهرِ».

رحم الله صاحبَ هذه النفْسِ الأبية، وهذا الشَّمَمِ الباذخ، وذلك الخُلُقِ العظيم، والعالِمِ الغزيرِ النَّمير.

١١٢ ــ وقد وقع للعبدِ الضعيفِ جامعِ هذه «الصفحات» نَفادُ النفقة أكثرَ من مرة (١)، ومنها أثناء دراستي في كلية الشريعة بالقاهرة، فقد أبطأتْ نفقتي عليَّ من أهلي في حلب، وأصبحتُ ولم يبق معي سوى ١٣ قرشاً مصرياً، وكان اليوم يوم الخميس ولم أفطر بعد، فذهبت إلى الكلية على غير طعام، ولما عدت منها مررت بالمطعم ودخلته للغداء قبل ورود الآكلين، فتسابق إليَّ النُّدُل

(١) أذكر واقعتي هذه على استحياء من العلماء الذين دوّنتُ بعض أخبارهم في هذه «الصفحات»، فان واقعتي ليست بشيء في جنب ما وقع لهم، رحمهم الله وأثابهم ورضي عنهم.

ــ خَدَمُ المطعم ــ، استئناساً منهم بمظهري العلمي الشامي، وكل منهم يبدي الاهتمام بي بغية إكرامه بشيء.

ولما جلست للطعام تظاهرت بالمرض، وأنه لا يواتيني من الطعام سوى الحَساء (الشوربة) مع الخبز، وهو أرخص الطعام في ذلك المطعم. ثم خرجت من المطعم على بقيَّةِ جوعٍ حسنة، وبقي لدي عشرة قروش، وما أن وصلت إلى غرفتي التي أسكنها واستقررتُ فيها، حتى أرسلَتْ جارةٌ لي ولدَها تقترض مني خمسة قروش، فأقرضتها، وبقي لدي خمسة قروش، ونمتُ كما أنا دون أن آكل شيئاً، على أمل أن أُفطِرَ فُولاً في الغد صباح الجمعة، فيَقُوتني إلى آخر النهار، ويبقى من القروش بقية.

فلما أصبحتُ ظهرت إلى ساحة السطح الذي كانت غرفتي عليه، فإذا زميل لي من الطلبة السوريين الفقراء، كان يسكن على سطح يبعد عني نحو خمسين متراً، فأشار إليَّ هل لديك فلوس؟ فأشرت إليه: ليس لدي سوى خمسة قروش، فأشار أنه يريد الفلوس للفطور، فقلت بالإشارة: وأنا أريد الفطور أيضاً، فأنا أرميها لك، فاشتر بها فولاً وخبزاً لفطورنا جميعاً، وتعال به إليَّ، ثم رميتُ له بقطعة خمسةِ قروش، على اعتدادي أنه فَهِمَ مني، وأن الفُول سيأتي قريباً وأُفطِر.

ثم عُدت إلى غرفتي وانتظرت ثم انتظرت، ثم انتظرت فلم يأت أحد، وقاربَتْ صلاةُ الجمعة فذهبتُ للصلاة، ثم عدت وبقيتُ دون طعام إلى صباح يوم السبت، فذهبتُ إلى الكلية وعلائم الجوع والتأثر بادية على وجهي، فقال لي بعض زملائي الحمويين: ما بك؟ قلت: لا شيء، قال: لا بد، فاني أرى وجهَك ذاوياً متغيراً فأخبِرني، وأصرَّ عليَّ بإخباره، فأخبرتُه بجُوعي منذ يومين، فأخذني لمنزله وأضافني أكرمه الله، وأقرضني من نفقته حتى جاءت نفقتي، وأوسع الله عليَّ وذهبت الفاقة.

١١٣ ــ وبعد أن وقعت لي هذه الحادثة، وجاءتني النفقة من بلدي حلب،

حدَّثتُ بها شيخنا الإمام محمد زاهد الكوثري وكيلَ شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ، المهاجِرَ بدينه من تركيا إلى القاهرة ، المتوفى بها سنة ١٣٧١ رحمه الله تعالى ، للاستمتاع بالخبر وطرافته ، فحدَّثني تطييباً لنفسي بما وقع له من ذلك ، فكان أغرب وأعجب ، فأنا أسجِّلُ ما سمعته منه بعد أكثر من عشرين سنةً من سماعه ، فأكتُبُ ما بقي في ذهني .

قال رحمه الله تعالى : لما أقمت بدمشق ، وعكفت على المكتبة الظاهرية أطالع في أسفارها قرابة سنة ، نزلتُ أوّلَ الأمر في الفندق ، فلما قلّتْ نفقتي نزلتُ في غرفة متواضعة على سطح ، أستأجرتُها مشتركةً بيني وبين إنسان آخر غريب من تركيا ، ثم إني أملقت بالمرة ، فكان صاحبي في الغرفة — على فقره — يواسيني بما لديه من نفقة قليلة نشترك فيها طعاماً وشراباً ، ثم أملق هو مثلي ، وغاب يسعى في الرزق . وأصبحتُ على جوع شديد ، ولم يبق لديَّ درهم آكل به .

فذهبتُ صبيحة اليوم الأول من حالي هذه إلى الظاهرية كعادتي ، ولكن دون طعام ، ثم عُدتُ إلى الغرفة ، ثم أصبحتُ على ما نمت عليه من الجوع ، وذهبتُ إلى الظاهرية ، وعدتُ منها في جوع شديد ، وجلستُ في غرفتي إلى الغد ، ثم ذهبت إلى الظاهرية في اليوم الثالث على اشتداد الجوع بي ، إذ وجدتُ جلوسي في الغرفة يزيد ألمَ الجوع عليَّ ، فالاشتغالُ بالعلم ربما يُخفِّفُ بعضَ الشيء ؟ !

ولما عدت إلى الغرفة بعد الظهر ، مررتُ بسمّان الحي الذي أودعتُ عنده عنواني للمراسلة ، فأخبرني أن ساعي البريد جاء إليَّ ومعه رسالة مسجّلة لا تُسلّم إلا بيدي ، فذهبتُ إلى البريد على سَغَبي وجوعي وتهالك قُوّتي ، فإذا هي رسالة من الشيخ رشيد الحواصلي الدمشقي ، أرسلها لي من إصطنبول إلى القاهرة منذ أكثر من أربعة أشهر ، ومعها حوالة لي بثلاثة جنيهات ذهبية .

وقد ظلّتْ هذه الحوالةُ مع الرسالة تذهب وتعود بين إصطنبول والقاهرة

طوالَ هذه المدة ، لعدم وجودي ولعدم معرفة عنواني في القاهرة ، حتى وصلتني في ذلك اليوم الثالث من شِدّتي هذه ، فأخذت الحوالة ، وتوسّعتُ بها أنا ونزيلي في الغرفة إلى حين .

قال : وكان سبب إرسال تلك الجنيهات إلي ، من صاحبي الشيخ الحواصلي في إصطنبول — كما حدثني بعد التقائنا في القاهرة — ، أنه عاد يوماً إلى بيته ، وقد اشترى سَمَكاً طيباً وتغدّى منه ، ثم تذكّرني وتذكّر أني بعيد عن الأهل والبلد ، ولا مورد ولا عمل ، وأني خرجت من البلد بملابسي ، فأرسَلَ لي تلك الحوالة من أشهرٍ بعيدة ، وشاء الله أن تصلني في حينها المناسب ، فالحمدُ لله على كريمِ لطفه وتدبيره .

١١٤ — قال : وقد أملقتُ إملاقةً ثانيةً بدمشق أيضاً ، ومضى عليَّ يومان — أو قال : ثلاثة — دون طعام ، وفي اليوم الثالث لقيني في الطريق رجل من أهل فلسطين ، كنتُ لمحتُه في بعض المجالس التي ضَمّتني مع بعض العلماء بدمشق ، فتقدَّمَ لي قدراً حسناً من المال ، وأصرَّ عليَّ بأخذه ، وألحَّ كثيراً ، فأخذته تحت إلحاحه وتحت شدّة الفاقة والجوع ، ولكني ما عرفتُ اسم ذاك الرجل ، ولا اهتديتُ إليه حتى الآن لأرُدَّ له الجميل !

وكان شيخنا (الكوثري) رحمه الله تعالى (زاهداً) حقاً عند كل عارفيه ، فكان من الذين إذا وجدوا آثروا ، وإذا فقدوا صبروا وشكروا ، فرحِمَه الله تعالى وأعلى مَقامَه في الصابرين .

١١٥ — ومما وقع للعبد الضعيف مؤلف هذه (الصفحات) أيام الطلب والدراسة : أني كنت عائداً من القاهرة إلى بلدي حلب في آخر العام الدراسي عام ١٣٦٧=١٩٤٧ ، فلما وصلت إلى مدينة حيفا — وكانت تحت الاحتلال الإنكليزي — بِتُّ فيها انتظاراً لسفر السيارة صباح الغد إلى دمشق ، بعد أن حجزت في السيارة الكبيرة لسفري ودفعت الأجرة ٦٠ قرشاً مصرياً ، وذهبت إلى الفندق بانتظار صباح الغد للسفر ، وكان قد بقي معي من النفقة بعد تناول العشاء وأجرة

الفندق ٦٥ قرشاً مصرياً .

فلما جئت على الموعد صباحاً رفض سائق السيارة أن يحملني ، نظراً إلى أن معي أمتعتي في حقيبة ومعي أيضاً حقيبتان مملوءتان كتباً ، وردّ لي ٦٠ قرشاً ، فقلت له : أزيدك على أجرتك أجرةً للحقيبتين ، فأبى وأنزل ما كان حمّله من أمتعتي في الطريق ، وساق سيارته ومشى دون أن يستجيب لما عرضته عليه! فبقيتُ على الأرض ! والسيارة الكبيرة التي حجزتُ فيها لرخصها لا تذهب إلى دمشق إلا مرةً واحدة في اليوم . فنالني من الغمّ والحزن ماالله تعالى به عليم .

ورآني رجل من أهل حيفا وأنا أحاور السائق لإركابي ، ورآه قد تركني ومشى دون مبالاة ولا رحمة ، ورأى همّي وغمّي ! فقال لي : لا تغتمّ يا شيخ ، هناك سيارة ثانية تذهب إلى دمشق في (شركة العلمين) ، وهي سيارة صغيرة تذهب بعد الظهر فسافرْ فيها ، واستدعى سيارة أجرة لنذهب بها إلى (شركة العلمين) ، فأخذتُ طريقي معه إليها ، ولما وصلتُ إلى مقر الشركة علمت أن السيارة تسافر بعد الظهر في الساعة الثانية ، وأجرة الركوب فيها ٢٥٠ قرشاً مصرياً ، فقلت لهم : عندي الآن ١٢٥ قرشاً ، وأدفع لكم الباقي في دمشق فقبلوا . فدفعت لهم ما بقي معي ١٢٥ قرشاً ، وذهبت أتمشى في البلد بانتظار الموعد بعد الظهر .

ولما جئت على الموعد في الساعة الثانية ، وجدت الموظفين في مكتب الشركة يتوارون بوجوههم مني ، وقد حان الموعد المحدّد للسفر ، ومشهورٌ جداً عن هذه الشركة ضبطُ مواعيدها ودقّةُ انتظامها في معاملتها ، فرابني تأخُّرُهم وتواريهم ، ثم علمتُ أنه ليس من مسافر إلى دمشق سواي عندهم ، وهم يضنون أن تخرج سيارة براكب واحد ، وعددُ ركابها خمسة .

ثم مضى من الوقت نصفُ ساعة وأنا أذكّرُهم بالموعد واضطراري إلى السفر ، وإذا برئيس الشركة يحضر ، واسمه : (أبو أحمد فستق) ، ولما دخل قاموا لاحترامه ، وعلمتُ أنه المسئول الأول ، فحدّثته بالأمر ، فأمرَ على الفــور

باخراج سيارة تسافر بي وحدي إلى دمشق ، تحقيقاً لانتظام مواعيد الشركة والتزامِها ، فأخرجوها وجعلوا يرفعون أمتعتي إلى السيارة ، فشكرته وحمِدتُ له موقفه .

ثم استدعى سيارةً ثانية لركوبه خاصةً يسافر بها إلى بيروت ، ثم قال لي : هل تركبُ معي إلى بيروت وتذهبُ من هناك إلى دمشق في سياراتنا في بيروت؟ فقلت له : لا مانع عندي من هذا ، وما أحِبُّ أن أكلفكم سيارةً كاملةً من أجلي وحدي تسافر بي إلىدمشق ، فحوّلوا لي أمتعتي من سيارة دمشق إلى سيارته إلى بيروت .

ولما وصلنا إلى (الناقورة) من حدود الاحتلال الإنكليزي ، كان التفتيشُ من رجال الحدود والجيش هناك شديداً جداً للغاية وطويلاً جداً ، وينظرون في كل شيء ويفتحون كل كتاب مع المسافر ، وكان معي حقيبتان من الكتب ، فامتلأ قلبي هماً وغماً لماسألاقي من العناء معهم .

ولمّا رأى رجالُ الحدود والضابطُ المسئول هناك : صاحبي (أبو أحمد فستق) وكان رجلاً وجيها مشهوراً عندهم فيما بدا لي ، تساهلوا في تفتيش الأمتعة والكتب ، فما زادوا على فتح الحقائب ثم إغلاقها . وخرجنا من (الناقورة) بيُسر وسهولة لا ألقاهما لو لم يكن معي هذا الرجل الوجيه ، فشكرتُ له صحبته ، ولما وصلنا إلى بيروت كان قد بقي للمغرب نحو ساعة ، ولم يكن هناك سيارة مسافرة من مكتب شركة العلمين إلى دمشق !

فقلت لمسئول المكتب في بيروت : يلزمكم أن تُسفِّروني إلى دمشق كما هو الاتفاق ، فقال لي : آسَفُ أنه لا يوجد لدينا مسافرون غيرُك ، ولعلّك تعذُرنا؟ ونحن نكتفي منك بمقابل ذلك بالأجرة التي أخذناها منك . فقلت له : أنظُرْ في أمري ، ولم يكن بقي معي شيء من المال ، وليس لي معارف في بيروت يسهل عليّ الاقتراض منهم ، ففكرت : كيف أنام هذه الليلة ؟ وكيف أسافر غداً؟

ولا درهم ولا مال بيدي ! فضاقت علي نفسي ، ثم استفتحت الله تعالى الخير وكَشْفَ الغُمَّة .

ثم تذكرت أن لي قريباً من الأرحام في بيروت ، بَعُد عهدي بلقائه ، ولا أتذكَّرُ بالضبط موضعَ سَكَنه ، فجعلتُ أستذكر الحيَّ الذي يَقطن فيه ، وأمشي فأسأل عنه حتى اهتديتُ إليه بعد المغرب بكثير ، فاستقبلني ورحَّب بي ، وفَرِحَ بقدومي كثيراً ، وبادَرَ إليَّ قائلاً : لديَّ مئتا ليرة سورية أريد إرسالَها إلى حلب من نحو شهر ولم يتيسر لي أحد، فهل تتكرَّمُ باصطحابها معك وأكون لك من الشاكرين ؟ فقلت له : نعم وبكل سرور ، وأخذتُها ونِمتُ عنده ، وأصبحتُ وقد ذهَبَ الغَمُّ عني ، وأعقبه اليُسر والارتياحُ الغامر بما يَسَّر الله لي وأذهب عني من الهم والغم ، فالحمدُ لله الذي لا يَنسى عبادَه ، ويدبِّرُ الأمرَ بحِكمته وعلمِه وهو اللطيفُ الخبير .

أنتقل بعد هذا إلى :

الجانب السادس

في أخبارهم في فَقْدِ الكتب أو بَيْعِها أو نحو ذلك عند المُلِمّات.

والكتبُ من حياة العالم تَحُلُّ منه محلَّ الرُّوح من الجسد والعافيةِ من البَدَن. وسنرى من أخبارهم في فقد الكتب أو تَلَفِها أو احتراقِها العَجَبَ العجاب ، وقد أكثروا القول في انتكابهم بها، وأجتزىء مما قالوه باليسير :

١١٦ — وهذا القاضي الجُرْجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز) ، يَذكر موقِعَ الكتاب من نفسه ومن لَذاذةِ حياته ، فيقول كما في ترجمته في « وَفَيَات الأعيان » ١ : ٣٢٥ :

ما تَطعَّمتُ لَذَّةَ العَيْشِ حتى ... صِرْتُ للبَيْتِ والكتابِ جَليسا

ليس شيءٌ عندي أعزَّ من العلمِ ... فما أبتغي سِواه أَنيسا
إنما الذُّلُّ في مُخالَطةِ النّـاسِ ... فدَعْهم وعِشْ عَزيزاً رَئيسا

١١٧ — وكان قاضي مصر ومُحدِّثُها (عبد الله بن لَهِيْعَة)، المولود سنة ٩٧ ، والمتوفى سنة ١٧٤ : إماماً في الحديث وحفظه وروايته ، فنُكِبَ باحتراق كتبه في سنة ١٦٩ ، فكثُرَ الوَهَمُ والتدليسُ في حديثه ، فمن أخَذَ عنه قبل احتراق كتبه ، فحديثُهُ أقوى ممن أخَذَ عنه بعد احتراقها ، كما في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ١ : ٢٣٨ .

ولما احتَرقت كتبُهُ ، وصَلَه الإمامُ الليث بن سعد المصري بألف دينار، كما ذكره الحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » ٨ : ٤٦٤ .

وهذا خبرٌ آخر يُصوِّرُ تفديةَ العالم لكُتُبِه التي هي جزء من لحمه ودمه،

١١٨ — قال الحافظ السخاوي رحمه الله تعالى في « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » ص ١٥٧ « كان أبو أيوب سليمان بن داود الشاذَكُوني من الحفاظ الكبار — وتُوفِّي في أصبهان سنة ٢٣٤ — رُؤي بعد موته في النوم ، فقيل له : ما فعَلَ الله بك ؟ قال : غَفَر لي ، فقيل : بماذا ؟ قال : كنتُ في طريق أصبهان ، فأخَذَني المطرُ ، وكان معي كتب ، ولم أكن تحت سَقْفٍ ولا شيء ! فانكببتُ على كتبي حتى أصبحتُ وهَدأ المطر ، فغفر الله لي بذلك في آخَرين » (١) .

١١٩ — وهذا إمام المحدِّثين وشيخُ البخاري (علي بن المَدِيني) المتوفى سنة ٢٣٤ رحمه الله تعالى ، — وهو الذي قال فيه الخطيبُ البغدادي : « فيلسوفُ هذه الصنعة وطبيبُها ، ولسانُ طائفة أهل الحديث وخطيبُها » — قد ألَّف كتابه

(١) وتقدم في ص ٦٨ خبرُ (ابن الخاضبة) حين وقع الغرق في بغداد على داره وكتبه ! ، وفي ص ٧٨ خبرُ (محمد بن نصر المروزي) حين غرق في البحر ، وذهب منه ألفا جزء !

العظيم « المسند » على الأطراف(١) ، واستقصى فيه واستوعب ما أمكنه ، ثم رَحَلَ رحلةً طويلة ، فطوّف فيها ما طوف من بلاد الإسلام في ثلاث سنين ، ثم عاد إلى بلده : البصرة ، فرأى « مسنده » قد أكلتْه دُودةُ الكتب وقضَتْ عليه ، فمات الكتابُ في حياة مؤلفه !

حكى الخطيب في ترجمته في « تاريخ بغداد » ١١ : ٤٦٢ أنه قال : « كنتُ صنّفت (المسند) على الطّرَف مستقصىً(١) ، وكتبتُه في قراطيس ، وصيّرتُه في قِمَطْر كبير(٢) ، وخلّفتُه في المنزل ، وغبتُ هذه الغَيبة ، فلما قدمتُ ذهبتُ يوماً لأُطالعَ ما كنتُ كتبتُ ، فحرّكتُ القِمَطْر ، فاذا هي ثقيلةٌ رَزينة بخلاف ما كانت ، ففتحتُها فإذا الأَرَضَةُ قد خالطَت الكُتُب ، فصارَتْ طيناً ! فلم أنشَط بعْدُ لجمعه ! » .

١٢٠ — وقال القاضي شمس الدين ابن خلّكان في كتابه « وَفَيَات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان » ١ : ٣٣٧ ، في ترجمة الشريف المرتضى أبي القاسم (علي بن الطاهر) : « حكى الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي اللغوي ، أنّ أبا الحسن علي بن أحمد بن علي بن سلّك الفَالي الأديب ، كانت له نسخة من كتاب «الجمهرة» لابن دُرَيْد في غاية الجودة ، فدعَتْه الحاجةُ إلى بيعها ، فاشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم المذكور بستين ديناراً ، وتصفّحها فوجد بها أبياتاً بخط بائعها أبي الحسن الفَالي المذكور ، وهي :

أنِستُ بها عشرين حولاً وبعتُها ... لقد طال وَجْدي بعدها وحنيني
وما كان ظنّي أنني سأبيعُها ... ولو خلّدتني في السجون دُيوني
ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصِبْيةٍ ... صِغارٍ عليهم تستهلُّ شؤوني
فقلتُ ولم أملِكْ سَوابقَ عَبْرَتي ... مقالةَ مكويّ الفؤادِ حزينِ

(١) الطّرَفُ هنا المراد به جملةٌ بارزة من الحديث تدل عليه .
(٢) القمطر : تقدّم تفسيره تعليقاً في خبر ابن معين في ص ٥٨.

« وقد تُخرِجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ ... كرائمَ من رَبٍّ بهنَّ ضَنينِ »

فأرجَعَ النسخةَ إليه ، وترَك له الدنانير رحمه الله تعالى » . انتهى(١) .

١٢١ — ولأبي الحسَن الفَالي هذا شعرٌ لطيف ، استحسنتُ ذكره استطراداً ، لما له من صلة بالعلم والعلماء ، وقد أورد منه ابن الأثير في «الكامل» ، في حوادث سنة ٤٤٨ التي توفي فيها الفَالي رحمه الله تعالى ، فمن شعره الجميل قولُه :

(١) وهذا الفالي : منسوب إلى فالة بالفاء ، وهي بلدة بخوزستان ، كما ضبطه ابن خلكان ، وياقوت في ترجمته في « معجم الأدباء » و «معجم البلدان» . وقد أقام بالبصرة مدة طويلة ، ثم استوطن بغداد وحدّث بها ، وتوفي فيها سنة ٤٤٨ ، وكان أديباً شاعراً ، روى عنه الخطيبُ البغدادي صاحب « تاريخ بغداد » وغيرُه كما ذكره ابن خلكان .

قال عبد الفتاح : وإنما ذكرتُ نِسبةَ الفَالي ، وذكرتُ تاريخ وفاته وبلَدَ إقامته ، لأدفعَ الاشتباهَ عنه والتحريفَ الذي يقع في اسمه ، فانه يقع محرَّفاً إلى (القالي) بالقاف ، ظناً أنه (أبو علي القالي) المشهور ، وذاك (أبو علي) وهذا (أبو الحَسَن) ، وأبو علي تُوفّي قبلَه بنحو مئة عام في قُرطبة سنة ٣٥٦ ، وهذا توفي ببغداد سنة ٤٤٨ .

وقد وقع هذا التحريف في اسمه في كتب كثيرة ، مثل كتاب «الفَلاكة والمفلوكون» للدّلَجي ص ١١٤ ، و « المزهر » للسيوطي ١ : ٩٥ بتحقيق ثلاثة من الأساتذة المحققين ، و « تاج العروس » للزبيدي ١ : ١٢ وكتاب « ظهر الإسلام » ١ : ١١٧ — ١١٨ ، للأستاذ أحمد أمين ، فقد قال فيه : « وهذا أبو علي القالي البغدادي ، ضاقت به الحال قبل أن يرحل إلى الأندلس ، حتى اضطر إلى أن يبيع بعض كتبه ، وهي أعز شيء عنده ، فباع نسخةً من كتاب « الجمهرة » وكان كلِفاً بها ، فاشتراها الشريفُ المرتضى ، فوجدَ عليها بخط أبي علي :
أنِستُ بها عشرين حَوْلاً وبعتُها . الأبيات ... » .

فزاد الأستاذ أحمد أمين إلى هذا التحريف الذي وقع فيه وتقبَّلَه بقبول حسن : أنّ ذلك كان من أبي علي القالي قبل أن يرحل إلى الأندلس ! وأن الشريف المرتضى اشترى النسخة منه ! والشريف المرتضى وُلِدَ سنة ٣٥٥ ، وأبو علي القالي توفي سنة ٣٥٦ ، فكيف يشتري هذا من هذا ؟ !

لما تبدّلت المجالسُ أوجُهاً ... غيرَ الذين عهِدتُ من علمائها
ورأيتُها محفوفةً بسوى الأُلى ... كانوا وُلاةَ صُدورِها وفِنائها
أنشدتُ بيتاً سائراً متقدِّماً ... والعينُ قد شَرِقَتْ بجاري مائها
« أمّا الخيامُ فإنها كخيامهم ... وأرى نساءَ الحيّ غيرَ نسائها »

قال ابن الأثير : « ومن شعره الحسن قولُه :

تصدَّر للتدريس كلُّ مُهوَّسٍ ... بليدٍ تَسمّى بالفقيه المدرِّسِ
فحُقّ لأهلِ العلمِ أن يتمثّلوا ... ببيتٍ قديمٍ شاعَ في كل مجلسِ
«لقد هزُلَتْ حتى بدا من هُزالها ... كُلاها وحتى سامها كلُّ مُفْلِسِ ! » .

١٢٢ — وهذا الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن ثابت الخَوْلاني ، المعروف بالحدّاد المَهْدَوي[1] ، يبيعُ كُتُبَه اضطراراً وفقراً ، فتسألُه زوجتُه وهي تَعرفُ حُبَّه لكُتُبِه وشدّةَ تعلّقه بها : كيف بِعتَ الكتب وهي أعزُّ شيء لديك ؟! فيقول لها كما حكاه الحافظ السِّلَفيُّ في كتابه « معجم السَّفَر » ، وياقوت الحَمَوي في « معجم البلدان » عند اسم (المَهْدِيّة) ٨ : ٢٠٨ :

قالتْ وأبدَتْ صفحةً ... كالشمس من تحت القِناعْ
بِعتَ الدفاترَ وهي آخِـ ... ـرُ ما يُباعُ من المتاعْ
فأجبتُها ويدي على ... كبِدي وهَمَّتْ بانصداعْ
لا تَعجبي مما رأيتِ ... فنحن في زمن الضياعْ !

١٢٣ — وجاء في « الأعلام » للزِّرِكْلي ١ : ١٩٦ ، نقلاً عن « معالم الإيمان ٣ : ٩ — ١٢ في ترجمة (أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن القَصْري المتوفى سنة ٣٢١ : « فقيه من أهل القيروان ، نسبتُه إلى قَصْر الأغلب ، على ميلين من جنوب القيروان .

(١) نسبة إلى بلدة المَهْدِية قرب مدينة سَلا في المغرب الأقصى .

له عناية بالعلم ورواية الحديث وجمع الكتب ونسخها وتصحيحها . كان يقول : لي أربعون سنة ما جَفّ لي قلم — يعني من كثرة ما ينسخ بالليل والنهار — ، وكان ربما باع بعضَ ثيابه ، واشترى بثمنه كتاباً أو رُقوقاً لنسخ كتاب » . رحمه الله تعالى .

١٢٤ — وقال التاج السبكي في « طبقات الشافعية » في ترجمة الإمام الغزالي ٣ : ١٠٣ « قال الإمام أسعد المِيهَني : سمعت الغزالي يقول : قُطِعت علينا الطريق ، وأخذَ العيّارون جميعَ ما معي ومَضَوْا [1] ، فتبعتُهم فالتفتَ إليَّ مقدَّمُهم وقال : ارجع ويحك ، وإلا هلكت . فقلت له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن تَرُدَّ عليَّ تعليقتي فقط ، فما هي بشيء تنتفعون به .

فقال لي : وما هي تعليقتك ؟ فقلتُ : كتُبٌ في تلك المِخلاة ، هاجرتُ لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها . فضحك وقال : كيف تدّعي أنك عرفتَ علمها ؟ وقد أخذناها منك فتجرَّدتَ من معرفتها وبقيتَ بلا علم ! ثم أمَرَ بعض أصحابه فسلّم إليَّ المخلاة .

قال الغزالي : هذا مستنطَقٌ أنطقه الله ليرشدني به في أمري ، فلما وافيتُ طُوس أقبلتُ على الاشتغال ثلاثَ سنين ، حتى حفظتُ جميعَ ما علّقته ، وصِرتُ بحيثُ لو قُطع عليَّ الطريق لم أتجرَّد من علمي » .

١٢٥ — وقال القاضي ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ١ : ٢٠٩ في ترجمة ابن الدهان النحوي البغدادي (أبي محمد سعيد بن المبارك) المتوفى سنة ٥٦٩ « كان سيبويه عصره ، وله في النحو التصانيف المفيدة — ثم ذكرها ابن خلكان — ثم إن أبا محمد تَرَكَ بغداد ، وانتقلَ إلى الموصل ، قاصداً جناب الوزير جمال الدين الأصبهاني المعروف بالجواد ، فتلقاه بالإقبال وأحسن إليه ، وأقام في كنَفه مدة .

(١) العيارون جمع عيار ، وهو النشيط في المعاصي .

وكانت كتبه قد تخلّفت ببغداد ، فاستولى الغَرَقُ تلك السنة على البلد ، فسيَّر من يُحضرها إليه إن كانت سالمةً ، فوجدها قد غَرِقَت ! وكانت خلف داره مَدْبَغةٌ فغرقت أيضاً ، وفاض الماء منها إلى داره ، فتلفت الكتبُ بهذا السبب زيادةً على إتلاف الغرق ، وكان قد أفنى في تحصيلها عمره ، فلمّا حُملت إليه على تلك الصورة ! أشاروا عليه أن يُطيِّبها بالبَخُور ، ويصلح منها ما يمكن . فبخّرها باللاّذَن [1] .

ولازَمَ ذلك إلى أن بخّرها بأكثر من ثلاثين رطلاً لاذَناً، فطلَعَ ذلك إلى رأسه وعينيه ، فأحدث له العمى وكُفَّ بصره ! » .

١٢٦ — وهذه فاجعة كبرى من فواجع العلماء بفقد الكتب ، تنزلُ بأسامة بن منقذ أمير بلدة شَيْزَر وقلعتها ، وأحد الشجعان والعلماء الأدباء في عصره ، ولد سنة ٤٨٨ وتوفي سنة ٥٨٤ ، وقد حلّت به هذه الداهية الدهياء قبل سنة ٥٦٩ في حياة الملك العادل نور الدين الشهيد رحمهما الله تعالى .

قال أسامة في كتابه « الاعتبار » ص ٣٤ ، الذي دوّن فيه مجمل سيرته — وهو يتحدث عن هذه الفاجعة المؤلمة على مَدَى العمر — : « ثم اتصلتُ بخدمة الملك العادل نور الدين رحمه الله ، وكاتبَ الملكَ الصالح — بن رُزِّيك في مصر — في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر ، وكان محسناً إليهم .

فردَّ الرسولَ واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج ، وكتبَ إليَّ يقول : ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر ، فتصل إلى مكة ، وأُنفِذُ لك كتاباً بتسليم مدينة أُسوان إليك ، وأَمُدُّك بما تتقوى به على محاربة الحبشة ، فأسوان ثَغْر من ثغور المسلمين ، وأُسيِّرُ إليك أهلك وأولادك .

ففاوضتُ الملك العادل واستطلعتُ أمره ، فقال : يا فلان ما صدَّقتَ متى

(١) قال في « لسان العرب » : اللاذَن من العلوك . وقيل : هو دواء بالفارسية .

تَخلُص من مصر وفتنها ، تعودُ إليها ؟ ! العُمرُ أقصرُ من ذلك ، أنا أُنفِذُ — من — يأخُذُ لأهلك الأمانَ من ملك الإفرنج ، وأُسيِّرُ من يُحضرهم .

فأنفذَ رحمه الله — من — أخذَ أمانَ الملك في البر والبحر ، وسيَّرتُ الأمانَ مع غلام لي وكتابَ الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح ، فسيّرهم في عُشاريّ من الخاص إلى دمياط ، وحمَل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ، ووصّى بهم .

وأقلعوا من دمياط في بُطْسَةٍ من بُطس الإفرنج [1] ، فلما دنوا من عكّا والملكُ — لا رحمه الله — فيها ، نفّذَ قوماً في مركب صغير ، كسّروا البُطْسَة بالفؤوس ، وأصحابي يرونهم ، وركِبَ ووقَفَ على الساحل ، — و — نُهِبَ كل ما فيه !

فخرج إليه غلامٌ لي سباحةً ، والأمانُ معه ، وقال له : ما هذا أمانُك ؟ قال : بلى ، ولكن هذا رَسْمُ المسلمين : إذا انكسر لهم مركب على بلد ، نَهَبه أهلُ ذاك البلد ! قال : فتَسبينا ؟ قال : لا .

وأنزلهم — لعنه الله — في دار ، وفتّش النساء ، حتى أخذَ كلَّ ما معهم ، وقد كان في المركب حُليّ أودعه النساء ، وكسواتٌ وجواهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة ، بنحوٍ من ثلاثين ألفَ دينار ، فأخذَ الجميع ، ونفّذَ لهم خمس مئة دينار ، وقال : توصّلوا بهذه إلى بلادكم ، وكانوا رجالاً ونساء في خمسين نَسَمة .

وكنتُ إذ ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود : رَعْبان وكَيْسُون [2] ، فهوَّن عليَّ سلامَةُ أولادي وأولاد أخي حِرمانَ ما ذهب من المال ، إلا ما ذَهَبَ لي من الكتب ! فانها كانت أربعةَ آلاف مجلّد من الكتب الفاخرة ،

(١) البطسة : المركب ، وهي كلمة غير عربية .

(٢) الملك مسعود : سلطان قونية آنذاك . ورغبان وكيسون اسما بلدين من بلاده .

فانّ ذهابها حزازةٌ في قلبي ما عشتُ ! فهذه نكبات تزعزع الجبال، وتُفْني الأموال ، والله سبحانه يعوّض برحمته ، ويختم بلطفه ومغفرته » .

١٢٧ — وقال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في « مناقب الإمام أحمد » ص ٢٩٧ : « لما وقع الغَرَقُ ببغداد سنة أربع وخمسين وخمس مئة ، غَرِقَتْ كتبي ! وسَلِمَ لي مجلّدٌ فيه ورقتان بخط الإمام أحمد ! » .

١٢٨ — وقال الحافظ السخاوي في « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » ٦ : ١٠٥ في ترجمة الإمام الحافظ (عُمَر بن علي بن أحمد الوَادِي آشي) الشهير بابن المُلَقِّن ، المولود بالقاهرة سنة ٧٢٣ والمتوفى بها سنة ٨٠٤ رحمه الله تعالى ، وقد بلغَتْ مؤلّفاته نحو ثلاثِ مئة مصنّف ، قال السخاوي :

« قال شيخنا — أي الحافظ ابن حجر — : وكان عنده من الكتب ما لا يدخل تحت الحصر ، ثم إنها احترقَتْ مع أكثر مسوّداته في أواخر عمره ، ففُقِدَ أكثرها ! وتغيّر حالُه بعدها ! فحَجَبه ولده إلى أن مات . وقال شيخنا أيضاً — الحافظ ابن حجر — في « معجمه » : إنه قبل احتراق كتبه كان مستقيمَ الذهن . ولما احترقَتْ كتبُه أنشده شيخنا من نظمه مخاطِباً له :

لا يُزْعِجَنَّكَ يا سراجَ الدين إن ... لَعِبَتْ بكُتْبِك ألْسُنُ النِّيرانِ
لله قد قرَّبتَها فتُقبِّلَتْ ... والنارُ مُسْرِعةٌ إلى القُربانِ » .

١٢٩ — وقال الحافظ المتقِنُ محدِّث حلب سِبطُ ابن العجمي في كتابه « الاغتباط بمعرفة من رُمِيَ بالاختلاط » ص ١٩ : « عُمَر بن علي بن أحمد الوادي آشي ، شيخُنا الحافظ الشهير بابن المُلَقِّن ، اختلَطَ قبل موته — فيما بلغني — بسبب احتراق كتبه » . انتهى .

١٣٠ — وقد وقع لشيخنا الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى ، في كهولته غرَقٌ أشرفَ فيه على الموت لولا أن الله أحياه ، وذهب منه في

غرقه هذا عددٌ من نفائس المخطوطات كان يصحبها معه في سفره وحضره لنفاستها وتعلُّقه بها ، فكان دائم الحسرة عليها طول عمره .

وذلك أنه في سنة ١٣٣٦ كان في بلدة قَسْطَمُوني ، وأراد العودة إلى إصطنبول ، وكان الوقت شتاء، ولا يمكن السفر إليها بالبر لكثرة الثلوج، فركب طريق البحر ، حتى إذا ما وصل إلى ميناء أَرَيْلي ، استقَلَّ قارباً للذهاب إلى (أقتششهر) ميناء بلدته (دُوزْجة) لزيارة أهله فيها .

ولما قارب ساحل مدينة (أقتششهر) هاج البحر وانقلب بهم القارب ، ولكنهم ظلوا متمسكين به ، فما كان من اثنين على الشاطىء إلا أن نَزَلا إلى الماء ، وسَبَحا ومعهما الحبالُ الطويلة ، فربطا القارب وعادا بالحبال إلى من في الساحل لجذبه ، وأثناء جذبه اشتدت الأمواج حتى أفلتَتْ القاربَ من أيديهم ، وعاد القارب إلى وسط البحر ، وغرق الشيخ في قلب الأمواج !

ثم هدأ البحر قليلاً فأنقذوا الغَرْقَى ، ولم يَعرِف الشيخَ أحدٌ من معارفه لشدة ما تحمل من البرد ومقاومةِ الأمواج ، وهم يرونه في عداد الأموات ، ولكن أحد الشيوخ قال : اضربوه على رجليه ، ونكِّسُوا رأسَه ليستفرغ الماء من جوفه ، فان كان فيه حياة يُحييه الله تعالى . ومضَتْ مدة طويلة والشيخ كذلك ، فاذا به تعود له الحركة والحياة رُوَيداً رُوَيداً ، ثم عاد إلى حالته العادية بعد أيام طويلة .

وكان معه حين غَرَقِه مجموعةٌ من أنفس المخطوطات ، منها ما هو من مخطوطات القرن السادس ومنها ما هو من القرن السابع ، وكانت من عيون الذخائر ، بلَغَ به الحرصُ عليها أن يستصحبها حيث سافر ، وكان من بينها مجموعة رسائل فيها كتابٌ في (مناقب أبي حنيفة) لابن حجر الهيتمي غيرُ المطبوع ، وكتابُ (عقيدة الطحاوي) ، بخط ابن العديم وهو معروف بإجادة الخط المنسوب وعليها تسميعات متوالية ، ونفائسُ وذخائرُ غيرهما ذهبَتْ مع الماء ! وبقي الشيخ يتحسّر عليها طَوالَ حياته رحمه الله تعالى .

١٣١ — وقال أبو جعفر أحمد بن يوسف البغدادي المصري الكاتب المتوفى سنة ٣٤٠ ، في كتابه « المكافأة » ص ١١٩ : « وحدثني شجاع بن أسلم الحاسب قال : قلت لسَنَد بن علي : من كان سببَك إلى المأمون حتى اتصلت به وكنت من جلسائه من العلماء ؟ فقال : أحدثك به :

كان والدي يتكسّبُ بصناعة أحكام النجوم مع قومٍ من أسباب السلطان يودونه ويحبونه ، وتعلّقَ قلبي بعد فراغي من قراءة كتاب « أُقْليدِس » ، بكتاب « المِجَسْطِي » ، [1] وكان في أيام المأمون بسوق الورّاقين رجل يعرف بمعروف ، يُورِّقُ هذا الكتاب — أي يُهَيِّىء وَرَقَه ويكتبه فيه — ويبيعُه بعدَ تكامل خَطِّه وأشكاله وتجليده بعشرين ديناراً ، فسألتُ والدي ابتياعَه لي ، فقال : أَنظرني يا بُني إلى أن يتهيّأ لي شيء آخذُه إما من رِزق ، وإما من فضل ، وأبتاعُه لك .

وكان لي أخ لا يشتهي مما تقدّمتُ أنا فيه من العلم شيئاً ، إلا أنه كان يخدم أبي في حوائجه والإشفاق عليه .

فلما سوّفني أبي بالكتاب ، وطالت المدّةُ فيه ، ركبتُ معه لأُمسِك دابّتَه في دخوله إلى من يدخل إليه ، ولي إذ ذاك سبع عشرة سنة ، فخرج إليّ غلمانُ من كان عنده فقالوا : انصرف ، فقد أقام أبوك عند مولانا ، فمضيت

(١) جاء في « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » لحاجي خليفة ١ : ١٣٧ قولُه : « أُقْليدِس في أصول الهندسة والحساب . وهو بضم الهمزة وكسر الدال وبالعكس ، لفظ يوناني مركب من (أُقْلِي) بمعنى المفتاح ، و (دِس) بمعنى المقدار . وقيل : الهندسة أي مفتاح الهندسة » . انتهى .

وفي « المعجم الوسيط » ٢ : ٨٦١ « المِجَسْطِي : كتاب قديم في الهندسة والفلَك ، وضعه بطليموس الفلكي المصري حوالي سنة ١٤٠ ميلادية ، وتُرجم إلى العربية في عهد المأمون ، وعُدَّ حُجة في بابه » . انتهى . ونحوه في « كشف الظنون » ٢ : ١٥٩٤ .

بالدابة فبِعتُها بسَرْجِها ولِجامِها بأقلَّ من ثلاثين ديناراً .

ومضيتُ إلى معروف فاشتريتُ الكتاب بعشرين ديناراً ، وكان لي بيت أخلو فيه ، وجئتُ إلى أمّي فقلتُ لها : قد جَنيتُ عليكم جناية ، واقتَصصتُ القِصَّةَ عليها ، وحلَفتُ لها إن شَحذَتْ أبي عليَّ حتى يمنعني من النظر في الكتاب ، لأخرجُنَّ عنهم إلى أبعد غاية ، ورَددتُ عليها فضلَ ثمن الدابة ، وقلت لها : أنا أُغلِقُ باب هذا المنزل الذي لي ، وأَرضَى منكم برغيف يُلقَى إليَّ كما يُلقَى إلى المحبوس ، إلى أن أقرأه جميعاً ، فتضمّنَتْ لي بتسكين فَوْرَتِه .

ودخلتُ البيت وأغلقته من عندي ، فمضى أخي إلى والدي في الموضع الذي كان فيه فأسَرَّ إليه الخبر ، فتغيّر وجهه ، وتلجلج في حديثه ، فقال له من كان عنده : قد شَغلتَ قلبي وقلْبَ من حضَرَ بماظهر منك ، فبحقّي عليك إلا أخبرتَنا بماذا ؟ فحدّثه أبي ، فقال الرجل : هذا والله يَسرنا في ولدك ، فاتّعِدْ فيه بكل جميل ، ثم استحضر من إسطبله بَغْلاً أفْرَهَ من بغلِ أبي ، وسَرْجاً خيراً من سَرْجِه ، وقال لأبي : اركب هذا البغل ولا تُكلِّم ابنَك بحرف .

قال سَنَد : وأقمتُ ثلاث سنين كيوم واحد ، لا يَرى لي أبي صورةَ وجه ، وأنا مُجِد حتى استكملتُ كتاب المِجَسْطِي ، ثم خَرجتُ وقد عملتُ أشكالاً مستصعَبات ، ووضعتُها في كُمِّي ، وسألت : هل للمهندسين والحُسّاب موضعٌ يجتمعون فيه ؟ فقيل لي : لهم مجلس في دار العباس بن سعيد الجوهري تِربِ المأمون ، يجتمع فيه وجوه العلماء بالهيئة والهندسة ، فحضرتُه فرأيتُ جميعَ من حضَرَ مشايخَ ولم يكن فيهم حَدَثٌ غيري ، لأني كنتُ في العشرين .

فقال العباس : من تكون وفيمَ نظرتَ ؟ فقلت : غلامٌ يُحبُّ صناعة الهندسة والهيئة ، قال : ما قرأت ؟ قلت : « أُقْليدِس » « والمِجَسْطِي » ،

قال : قراءةَ إحاطة ؟ قلت : نعم ، فسألني عن شيء مستصعَب في كتـــاب « المجسطي » كان تفسيرُه في الأوراق التي كانت في كُمِّي فأجبته ، فعجبَ وقال : من أفادك هذا الجواب ؟ قلت : استخرَجتْه قريحتي وما سمعتُه من غيري ، وهو وغيرُه فيما مَرَّ بي في ورق معي ، قال : هاته ، فلما رآه اغتاظ واضطرب ، ثم قال لبعض مَنْ بينَ يديه من غلمانه : « السَّفَطَ » ، فجيء به ، فنظر إلى خاتمه فوجده بحاله ، ثم فضَّه وأخرج منه كراسة ، فجعلَ يقابل بها الورق الذي كان معي ، فكان الكلام فيما معه أحسن رَصْفاً من الكلام الذي معي ، والمعنى واحد .

فقال : هذا شيء تولَّيتُ تبيينَه من كتاب « المجَسْطي » ، فلما أحضرتَنيه توهَّمتُ أنه سُرِق مني ، حتى تبيَّنتُ اختلافَ اللفظين مع اتفاق المعنى . ثم أمَرَ أن يُقطعَ لي أَقْبِيَة ، ويُرتادَ لي مِنْطَقَة مذهّبة ، ففُرِغَ من جميع ذلك في تلك الليلة ، وأَدخَلَ بي إلى المأمون ، وأَمَرني بملازمته ، وأَجرى لي أنزالاً ورزقاً » .

١٣٢ — ونقل أستاذنا العلامة المؤرخ المحدث الأديب الشيخ راغب الطباخ رحمه الله تعالى ، في كتابه « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » ٧ : ٣١٥ ، في ترجمة علاَّمة حلب في عصره الشيخ (أحمد الحجّار) ، المتوفى سنة ١٢٧٧ رحمه الله تعالى :

أنه « كان يحب اقتناء الكتب ، حتى سمعنا أنه رأى كتاباً يباع ، ولم يكن معه دراهم ، وكان عليه ثياب فنزع بعضَها وباعه ، واشترى الكتاب في الحال . وبلغَتْ قيمةُ مكتبته بعد موته ٤٠ ألفاً ، مع أنها بيعت بغير أثمانها ! » (١).

١٣٣ — وقال العبد الضعيف مؤلف هذه (الصفحات) : كنت في أيام

(١) ليس في هذا الخبر ولا الخبر الذي قبله ويليه فقد الكتب أو تلفها... كالأخبار السابقة، وإنما فيها بيع الثوب والركوبة من أجل الحصول على الكتاب ، فهو قريب من ذلك .

الطلب والتحصيل مملقاً كأكثر طلبة العلم ، وكنت أشتري من الكتب ما أستطيع شراءه بالاقتطاع من نفقتي الضيقة ، بالنقد الحاضر أو بالدين الآجل إذا أمكن .

وعَرَضَتْ لي يوماً بعضُ كتب نادرة تهمني جداً ، ورغبتُ في اقتنائها ، ولكني كنت في إملاق شديد فلا سبيل إلى شرائها ! وقَلِقَ قلبي وخاطري من جرَّاء ذلك ، فبعتُ (شَالَتِي) التي وَرِثْتُها من أبي رحمه الله تعالى في (سوق الحراج) (١) ، واشتريت تلك الكتب ، وأرحتُ قلبي وخاطري ، وفرحتُ باقتنائها ووصولي إليها فرحاً عظيماً أنساني فقد (الشالة) والحمد لله .

وكنت في بعض الأحيان أَنذُرُ لله تعالى صلاةَ كذا وكذا ركعةً ، إذا حصلتُ على الكتاب الفلاني . ووقَعَتْ لي واقعة في شأن الحصول على كتاب ، أُسجِّلُها هنا لطرافتها :

لما كنتُ في القاهرة أيام دراستي في كلية الشريعة بالجامع الأزهر ، أوصاني شيخنا العلامة الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى ، خلال ملازمتي له باقتناء كتاب « فتح باب العناية بشرح كتاب النُّقَايَة » للعلامة الشيخ علي القاري ، وحَضَّني على الحصول عليه حَضّاً أكيداً وكثيراً ، مع علمه أني من هُواة الكتب النادرة النافعة . وكنت أظن أنه مطبوع في الهند ، وقد مكثت في القاهرة ست سنوات حتى إنهاء دراستي أسأل عنه ، وأنشده في كل مكتبة أُقدِّرُ وجودَه فيها ، فلم أظفر منه بخبر ولا أثر .

ولما عدت إلى بلدي حلب ، ما فتئتُ أبحث عنه أيضاً في كل بلد أزوره أو مكتبة أرتادها ، ولما كنت أظنه مطبوعاً في الهند ، وكان هو من كتب فقـــه السادة الحنفية ، كنت أسأل الكتبيين عن مطبوعات الهند في الفقه الحنفي عامة ،

(١) الشالة والشال : قطعة نسيج رهيف من الصوف الناعم الرفيع النفيس الملون ، ذات خطوط ونقوش ملونة جميلة ، تصنع في بلاد العجم (إيران وما جاورها) . وكانت تعرف في بلادنا باسم (الشال العجمي) ، ويلبسها الرجال فيلفها لابسها حِزاماً على وسط الثوب العربي المفتوح ، وتوضع الصغيرة منها على العنق في الشتاء لدفع البرد .

لعلي أصل إليه بهذه الطريقة ، إذ قد يجهلون اسمه ، وكان في دمشق كتبيون قدماء خبراء في الكتب القديمة والنفيسة ، وعندهم من قديمها ونفيسها الكثير ، ولكنهم يغالون به ويتشدّدون في بيعه ، منهم السيد عزّت القصيباتي ووالده ، والشيخ حمدي السفرجلاني ، والسيد أحمد عبيد .

فسألت السيد عزت القصيباتي عن « فتح باب العناية » على أنه من مطبوعات الهند ، فقال : هو عندي ، وأخرج لي كتاب « البناية بشرح الهداية » للإمام العيني ، المطبوع في الهند من مئة عام سنة ١٢٩٣ ، في ست مجلدات ضخام كبار جداً ، وكان هذا الكتاب أحد الكتب النادرة النفيسة التي أبحث عنها ، فاشتريته بثمن غير مغالى فيه ، إذ كان غيرَ الكتاب المطلوب الذي سميته له .

ثم سألت الشيخ حمدي السفرجلاني رحمه الله تعالى عن الكتاب ، فعلمت منه أنه مطبوع في قزان من بلاد روسيا ، وأنه أندر من الكبريت الأحمر كما يقال ، وأنه طول حياته واشتغاله بالكتب ما مرّ به منه سوى نسخة واحدة ، كان قد باعها للعلامة الكوثري بأغلى الأثمان التي لا تعقل ، فعند ذلك تعيّنَ عندي البلدُ الذي طُبِعَ فيه الكتاب ، وضَعُفَ أملي بالحصول عليه !

ولما أتاح الله لي حج بيته الكريم عام ١٣٧٦ ، ودخلت مكة المكرمة : طفقتُ أسأل عنه في مكتباتها ، لعلي أجده قادماً مع أحد المهاجرين من تلك البلاد إلى بلد الله الحرام ؟ فلم أوفق لذلك .

ثم ساقتني عناية الله تعالى إلى كتبيٍّ قديم منزوٍ في بعض الأسواق المتواضعة في مكة المكرمة ، وهو الشيخ المصطفى بن محمد الشنقيطي سلمه الله تعالى ، فاشتريت منه بعض الكتب ، وسألته — على يأس — عنه ، فقال لي : كان عندي من نحو أسبوع ، اشتريته من تَرِكَة بعض العلماء البخاريين ، وبعتُه لرجل من بخارى من علماء طشقند بثمن كريم ، فما كدتُ أصدقه حتى جعل يصفه لي وصفاً مثبتاً لمعرفته به ، وأنه الكتاب الذي ألوبُ عليه وأسعى منذ دهرٍ إليه !
فقلتُ : من هذا العالم الطشقندي الذي اشتراه ؟ فجعل يتذكره تذكراً

ويسمّيه لي : (الشيخ عناية الله الطشقندي) . فقلت : أين مسكنُه أو محلّ عمله أو ملتقاه ؟ قال : لا أدري عن ذلك شيئاً ، فقلت : كيف أسأل عنه ؟ قال : لا أدري ، فازددتُ عند ذلك يأساً من الحصول عليه أو لقاء مشتريه !

فذهبتُ بعد هذا أسأل عن (الشيخ عناية الله) كلَّ بخاري أراه في المسجد الحرام أو في أسواق مكة ، وصرتُ أذهب إلى المدارس والرُّبُط التي يقال لي : فيها بخاريون ، لأسأل عن هذا الشيخ البخاري ، حتى ذهبتُ إلى الأحياء الواقعة خارج مكة ، إذ قيل لي : فيها بعضُ البخاريين ، ولكن هيهات اللقاء بالمنشود عنه ؟ ! وكم في مكة المكرمة من البخاريين الذين يُسمَّون : عناية الله ؟

ثم أوصلني السؤال المتتابع إلى الشيخ عبد القادر الطشقندي البخاري الساعاتي رحمه الله ، في جهة حي جَرْوَل من أطراف مكة ، فسألته عن الشيخ الطشقندي ، فعرفه وعيّن لي اسمه : (الشيخ ميْر عناية الطشقندي) ، ولكن لا علم له بمستقره وملتقاه ، فعند ذلك غلبني اليأس من لقاء هذا الشيخ الذي عنده « فتح باب العناية » ! فصرت في أثناء طوافي حول الكعبة المعظمة زادها الله تشريفاً وتعظيماً : أطلبُ من الله تعالى أن يرشدني إلى ذلك الإنسان ، وييسر لي اقتناءَ هذا الكتاب ، وصرتُ أكرِّرُ هذا الدعاء والطلب مرات تلو مرات ، ومضى أسبوع وأنا — عَلِمَ الله — في تشتت بالٍ من حال البحثِ عن الكتاب وصاحبه.

حتى كنت يوماً أمشي في سوق باب زيادة من أبواب المسجد الحرام ، فرآني تاجر دمشقي قديم في مكة المكرمة ، يقال له : أبو عرَب ، كان له متجر هناك قبل توسعة الحرم ، فدعاني إلى متجره لما رآني شاميَّ السَّحْنة والمظهر ، يسائلني عن الشام وأهلها ، فسألته من شدة هَوَسي بالكتاب — وهو تاجر دمشقي شامي — عن الشيخ البخاري؟! فقال لي : هذا خَتَنُه زوجُ ابنته في الدكان الذي أمامي ، وهو أعرف الناس به ، فوالله ما كدتُ أصدّق ذلك فرحاً وسروراً .

فذهبتُ إلى خَتَنه وسألته عنه ، فاستغرب قائلاً : ما الذي يدعوك للسؤال

عنه ولقائه ؟ قلت : صار لي أكثر من أسبوع وأنا دائب البحث عنه ، فدُلّني عليه جزاك الله خيراً ، فأرشدني إلى منزله بالتعيين في حي المِسْفَلة ، جوار قهوة السَّقيفة ، فذهبت إليه مرة بعد مرة ليلاً ونهاراً حتى لقيته ، فتنازَلَ لي عن الكتاب بالثمن الذي اختار وأحب ، فكانت عندي فرحة من فرحات العمر .

وقد مَنَّ الله علي بنشر الجزء الأول من هذا الكتاب محقّقاً ، وأسأل الله تعالى أن يَمُنَّ عليّ بنشر باقي الكتاب بفضله وكرمه .

* * *

وأختم هذه الجوانب بذكر خَبَرَين جامعين ، اجتمعَتْ فيهما جُلُّ الجوانب المتقدمة ، فلذا رأيتُ إيرادهما في آخر هذه الصفحات ، لدخولهما في أغلب الجوانب السابقة .

الخبر الأول : خبر إبراهيم الحربي

١٣٤ — قال الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٦ : ٣١ ، وابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» ١ : ٨٦ — ٨٨ ، وشمس الدين النابلسي في «مختصره» ص ٥١ و ٢٩٤ ، في ترجمة (إبراهيم بن إسحاق الحربي) المولود سنة ١٩٨ والمتوفى سنة ٢٨٥ ببغداد رحمه الله تعالى . وهو الإمامُ العَلَمُ في العلم والزهد والفقه والحديث والأدب واللغة ، قال الخطيب :

« قال إبراهيم الحربي : أفنيتُ من عُمري ثلاثين سنةً برغيفين ، إن جاءتني بهما أمّي أو أختي أكلت ، وإلا بقيتُ جائعاً عطشان إلى الليلة الثانية .

وأفنيتُ ثلاثين سنة من عمري برغيف في اليوم والليلة ، إن جاءتني امرأتي أو إحدى بناتي به أكلتُه ، وإلا بقيتُ جائعاً عطشانَ إلى الليلة الأخرى .

والآن آكلُ نصفَ رغيف وأربعَ عشرةَ تَمْرَةً إن كان بُرْنياً ، أو نيِّفاً وعشرين إن كان دَقَلاً ، ومَرِضَتْ ابنتي فمضَتْ امرأتي فأقامت عندها شهراً ،

فقام إفطاري في هذا الشهر بدرهم ودانِقَين ونصف ! ودخلتُ الحمّامَ واشتريتُ لهم صابوناً بدانِقَين ، فقامَتْ نفقةُ شهر رمضان كلّه بدرهم وأربعةِ دوانق ونصف .

قال أبو القاسم بن بُكَير : سمعت إبراهيم الحربي يقول : ما كنا نَعرف من هذه الأطبخة شيئاً ، كنت أجيءُ من عَشِيٍّ إلى عَشِيّ وقد هيّأتْ لي أُمّي باذنجانة مشوية ، أو لَعْقَةَ بِنٍّ — البِنُّ بكسر الباء : الشَّحْم — ، أو باقةَ فِجْل .

قال أبو علي الخياط المعروف بالميِّت : كنتُ يوماً جالساً مع إبراهيم الحربي على باب داره ، فلما أن أصبحنا قال لي : يا أبا علي قم إلى شُغْلك ، فانّ عندي فِجلةً قد أكلتُ البارحةَ خَضِرَها ، أقومُ أتغدّى بجزَرَتِها » .

١٣٥ — ثم روى الخطيب البغدادي بسنده إلى أحمد بن سَلْمان النّجّاد ، أحد المحدِّثين من السادة الحنابلة المتقدِّمين ، وأحد الفقهاء الفقراء الشاكرين رحمه الله تعالى «قال أحمد بن سَلْمان النجّاد القَطيعي : أضقتُ إضاقة شديدة ، فمضيتُ إلى إبراهيم الحربي لأبُثّه ما أنا فيه ، فقال لي : لا يَضِق صَدْرُك ، فانّ الله من وراء المَعُونة ، وإني أضَقتُ مرةً حتى انتهى أمري في الإضاقة إلى أن عَدِم عيالي قُوتَهم !

فقالت لي الزوجة : هَبْ أني أنا وإياك نصبر ، فكيف نصنع بهاتين الصَّبيّتين ؟ فهاتِ شيئاً من كُتبك حتى نبيعه أو نَرهنَه ! فضَنِنتُ بذلك ، وقلتُ لها : اقترضي لهما شيئاً وأنظريني بقيّةَ اليوم والليلة .

وكان لي بيتٌ في دِهليز داري فيه كتبي ، فكنتُ أجلِسُ فيه للنَّسْخ والنَّظَر ، فلما كان في تلك الليلة إذا داقٌّ يَدُقُّ الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : رجلٌ من الجيران ، فقلت : ادخل ، فقال : أَطفِىء السِّراجَ حتى أدخل ، فكَبَبْتُ على السِّراج شيئاً وقلت : ادخل ، فدخل الدهليز فوَضَعَ فيه

صُرَّةً كبيرة ، وقال لي : إنا أصلحنا لصبياننا طعاماً ، فأحببنا أن يكون لك وللصبيان فيه نصيب ، وهذا شيء آخر ، فوضَعَه إلى جانب الصُرَّة الكبيرة وقال : تَصرِفُه في حاجتك ، وأنا لا أعرف الرجل وتركني وانصرف .

فدعوتُ الزوجة وقلت لها : أَسْرِجي السِّراج ، فأسرجَتْ وجاءت ، وإذا الصُّرَّة مِنديلٌ له قيمة ، وفيه خمسون وَسَطاً في كل وسط لونٌ من طعام ، وإلى جانب الصُّرَّة كيسٌ فيه ألفُ دينار ، فقلتُ للزوجة : أنبهي الصبيان حتى يأكلوا ، ولما كان الغد قضينا دَيْناً كان علينا من ذلك المال .

وكان وقتَ مجيء الحاجِّ من خُراسان ، فجلستُ على باب داري من غَدِ تلك الليلة ، وإذا جمّالٌ يقود جملين عليهما حِملان رِزْقاً[1] ، وهو يسألُ عن منزل إبراهيم الحربي ، فانتهى إلي ، فقلت : أنا إبراهيم الحربي ، فحَطَّ الحِملين وقال : هذان الحِملان أنفذَهما لك رجل من أهل خراسان ، فقلت : من هو؟ فقال : قد استحلَفَني أن لا أقول من هو .

قال أحمد بن سَلْمان النجاد : فقمت من عند إبراهيم الحربي ، ومضيتُ إلى قبر أحمد فزُرتُه ثم انصرفت ، فبينا أنا أمشي إلى جانب الخندق ، إذ لقيتني عجوز من جيراننا فقالت لي : مالك مغموماً ؟ فأخبرتها ، فقالت : إن أُمَّكَ قَبْلَ موتِها أعطتني ثلاثَ مئةِ درهم ، وقالت لي : أخبئي هذه عندكِ ، فاذا رأيت ابني مُضيقا مغموماً فأعطيه إياها ، فتعالَ معي حتى أُعطيك إياها ، فمضيتُ معها فدفعَتْها إليَّ .

١٣٦ — وكان أحمد بن سَلْمان النجاد هذا — كما حكى الخطيب في ترجمته في « تاريخ بغداد » ٤ : ١٩١ — يصوم الدهر ، ويفطر كل ليلة على رغيف ، ويترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف ، وأكَلَ تلك اللقم التي استفضلها .

(١) الرزق : ما ينتفع به ، والجمع أرزاق ، كما في « لسان العرب » .

١٣٧ — ثم ساق الخطيب البغدادي بسنده إلى أبي القاسم بن الجَبَلي قال : « اعتَلَّ إبراهيم الحربي علّة حتى أشرف على الموت ، فدخلتُ إليه يوماً فقال لي : يا أبا القاسم : أنا في أمرٍ عظيم مع ابنتَيَّ ، ثم قال لها : قومي اخرُجي إلى عَمِّك ، فخرجَتْ وألقَتْ على وجهها خِمارَها ، فقال لها إبراهيم : هذا عَمُّك كلِّميه ، فقالت لي :

يا عَمّ نحن في أمرٍ عظيم ! لا في الدنيا ولا في الآخرة ! الشهرَ والدهرَ ما لنا طعام إلا كِسَرٌ يابسة ومِلْح ، وربما عَدِمنا الملح ! وبالأمس قد وجَّه إليه المعتضِدُ مع بَدْرٍ ألفَ دينار فلم يأخذها ! ووَجَّه إليه فلان وفلان فلم يأخذ منهما شيئاً ! وهو عليل !

فالتفَتَ إبراهيمُ إليها وتبسَّم فقال لها : يا بُنَيَّة إنما خِفتِ الفقر ؟ ! قالت : نعم ، فقال لها : انظري إلى تلك الزاوية ، فنَظَرَتْ فإذا كُتُبٌ ، فقال : هناك اثنا عشر ألفَ جزء لغةٍ وغريب ، كتبتُها بخَطِّي ، إذا متُّ فوجِّهي كلَّ يوم بجزء تَبيعينه بدرهم ، فمن كان عنده اثنا عشر ألف درهم فليس هو بفقير ! » .

ثم ساق الخطيب البغدادي بسنده وابنُ الجوزي في « مناقب الإمام أحمد » ص ٥٠٨ بسنده أيضاً إلى أبي عمران الأشيَب قال : « قال رجل لإبراهيم الحربي : كيف قَوِيتَ على جَمْع هذه الكتب ؟ فغَضِبَ إبراهيم الحربي وقال : قَوِيتُ عليها بلَحْمي ودمي ! بلَحْمي ودَمي ! » .

١٣٨ — قال عبد الفتاح : إذا عرفنا تَعلُّقَ الحربي بكتبه وكيف جَمَعها بلحمه ودمه ، فكيف يُعقَلُ أن يَستجيب لزوجته حين قالت له كما سبق : « هاتِ شيئاً من كتبك حتى نبيعَهُ أو نرهَنَهُ » . فكُتُبُ العالم (خلاياه) التي يعيش بها ، والعالمُ يَبيعُ ثيابَه ، ولا يَبيعُ كتابَه . وقد قال الزمخشري في كتابه « نوابغ الكلم » : مَجْدُ التاجرِ في كيسه ، ومَجْدُ العالم في كراريسه.

والكتبُ عند النساء هي الضرائر المُضارَّة ، فأول ما تَمَسُّهنَّ الضائقة يتجه

تفكيرهن إلى بيعها وإخراجها من البيت ، والكتب عند العلماء هي الإخوان والأعوان ، فاذا مسّتْهم الضائقة صبروا على الجوع والعُري والفقر ، ولم يصبروا على فراق الكتب وإخراجها !

الخبر الثاني : خبر محمد بن طاهر المقدسي

١٣٩ — جاء في ترجمة (الحافظ المحدِّث الجوّال محمد بن طاهر المقدسي) المولود في بيت المقدس سنة ٤٤٨ ، والمتوفى سنة ٥٠٧ ، جاء في ترجمته الملحقة بآخر كتابه « الجمع بين رجال الصحيحين » ص ٦٣٣ ما يأتي :

« قال السمعاني : سمعتُ بعضَ المشايخ يقول : كان محمد بن طاهر يمشي في ليلة واحدة قريباً من سبعة عشر فَرْسَخاً [1] ،وكان يمشي على الدوام بالليل والنهار عشرينَ فرسخاً ، وكان داوُديَّ المذهب — أي ظاهِريَّ المذهب — ، وهو أَحَدُ الرحّالين في طلب الحديث .

سَمِعَ الحديثَ بمصر والثغورِ الشامية وبلادِ الشام والحجاز والجزيرة والعراق وفارس وخراسان والإسكندرية وتِنِّيس وبيتِ المقدس ودمشق وحلب ومكة وبغداد وأصبهان وجُرجان ، وآمِد ونيسابور وهَراة ومرو ، وما أظن أحداً رحَلَ في عصره مثلَ رحلته ، وكتب بخطه كثيراً من الكتب والمصنّفات الكبار والمسانيد والأجزاء المنثورة .

قال الحافظ السِّلَفي : سمعت الحافظ محمد بن طاهر المقدسي يقول : كتبتُ «صحيح البخاري» و «مسلم» و «أبي داود» سَبْعَ مرات بالوراقة أي بالأجرة ، وكتبتُ « سنن ابن ماجه » عَشْرَ مرات بالوراقة ، سوى التفاريق بالريّ .

قال محمد بن طاهر : بُلْتُ الدَّمَ في طلب الحديث مرّتين : مرةً ببغداد ، ومرةً بمكة ، وذلك أني كنتُ أمشي حافياً في حَرّ الهواجر بهما فلَحِقَني ذلك !

(1) الفرسخ يزيد على خمسة كيلو مترات.

وما ركبتُ دابّةً قط في طلب الحديث إلا مرة ، وكنتُ أحمِلُ كتبي على ظهري ، إلى أن استوطنتُ البلاد ، وما سألتُ في حال طلبي أحداً ، وكنتُ أعيش على ما يأتيني من غير سؤال .

ورحلتُ من طُوس إلى أصبهان لأجل حديثِ أبي زُرعَة الرازي، الذي أخرجه مسلم في « الصحيح »، ذاكَرَني به بعضُ المحدِّثين الرحّالة بالليل، فلما أصبحتُ شددتُ على رحلي وخرجتُ إلى أصبهان ، ولم أحلُل عنه حتى دخلتُ على الشيخ أبي عَمْرو ، فقرأته عليه عن أبيه عن أبي بكر القطان عن أبي زُرْعة ، ودَفَعَ إليَّ أبو عَمْرو ثلاثةَ أرغفة وكُمَّثْراتَين ، وما كان وقع إليَّ تلك الليلةَ قُوْتي ، ولم يكن لي قُوتٌ غيره ، ثم لزمتُه الى أن حصَلَ ما كنتُ أريد ، ثم خرجتُ إلى بغداد ، فلما عُدت إلى أصبهان كان قد تُوفِّي رحمه الله تعالى .

وكنتُ يوماً أقرأ على أبي إسحاق الحبّال بمصر « جزءاً » ، فجاءني رجل من أهل بلدي من بيت المقدس ، وأسَرَّ إليَّ كلاماً قال فيه : إنَّ أخاك قد وصَلَ من الشام ، وذلك بعد دخول الأتراك بيتَ المقدس وقَتْلِ الناسِ بها ، فأخذتُ في القراءة فاختلَطَتْ ولم يُمْكنِّي أن أقرأ ! فقال لي أبو إسحاق : مالك ؟ قلتُ : خير ، قال : لا بُد أن تُخبرني ما قال لك هذا الرجل ، فأخبرته فقال لي : وكم لك لم ترَ أخاك ؟ قلت : سنين ، قال : ولم لا تَذهَبُ إليه ؟ قلت : حتى أُتمَّ « الجزء » ، فقال : ما أعظم حِرصَكم يا أصحابَ الحديث ؟! قد تَمَّ المجلسُ وصلّى الله على محمد ، وانصرَف .

وأقمتُ بتِنِّيس مدةً على أبي محمد بن الحدّاد ونظرائه ، فضاق بي ، ولم يبق معي غيرُ درهم ! وكنتُ في ذلك اليوم أحتاجُ إلى خبز وإلى وَرَقٍ للكتابة ، فكنتُ أتَردَّدُ إن صرفتُه في الخبز لم يكن لي ورق للكتابة ، وإن صرفتُه في الورق لم يكن لي خبز ! و مَضَى على هذا ثلاثةُ أيام ولياليهن لم أَطعَمْ فيها !

فلما كان بُكرةُ اليومِ الرابع قلت في نفسي : لو كان لي وَرَقٌ لم يمكنني أن أكتُبَ فيه شيئاً لما بي من الجوع ، فجعلتُ الدرهم في فَمِي ، وخَرجتُ

لأشتري الخبز ، فبلعتُ الدرهم ! ووقع عليَّ الضحكُ ! فلقيني أبو طاهر بن خطاب الصائغ المَوَاقيتي بتِنِّيس وأنا أضحك ! فقال : ما أضحكك ؟ قلت : خير ، فألحَّ عليَّ وأبيتُ أن أخبره ، فحلَفَ بالطلاق : لتَصْدُقَنّي لِمَ تضحك ؟ فأخبرته ، فأخذ بيدي وأدخلني منزله ، وتكلّفَ لي في ذلك اليوم ما أطعمَهُ .

فلما كان وقتُ الظهر خرجتُ أنا وهو إلى الصلاة ، فاجتمعَ به بعضُ وكلاءِ عاملٍ كان بتِنِّيس يُعرَف بابن قادُوس ، فسأله عني فقال : هو هذا ، فقال : إنَّ صاحبي — أي أميرَ تِنِّيس — أمرني أن أُوصِلَ إليه كل يومٍ عشرةَ دراهم قيمتُها رُبعُ دينار ، وسهوتُ عنه ، فأخَذَ منه ثلاثَ مِئةِ درهم وجاءني وقال : قد سهّل الله رزقاً لم يكن في الحساب ، وأخبرني بالقصة ، فقلتُ : يكون عندك ونكونُ على ما نحن عليه من الاجتماع إلى وقتِ خروجي ، فإنني وحدي ، وليس لي من يقوم بأمري فيفعل ، وكان بعد ذلك يصلني ذلك القَدْرُ إلى أن خرجتُ إلى الشام » . انتهى .

* * *

١٤٠ — هذه صَفَحات أو قَبَسَات من تاريخ العلماء ، وما لاقَوْه من شدائد وأهوال ومتاعب في تحصيل العلم وتلقيه ، وقد بذلوا في سبيله المُهَج والأرواح كما رأينا ، وصبروا أشدَّ الصبر حتى نالوه ، فكانوا الأئمةَ الهُداةَ لمن بَعدهم ، فرحمةُ الله عليهم ورضوانُه العظيم .

وقد استحسنتُ أن أورد في ختام هذه الأخبار ، عن أولئك الأخيار الأبرار ، قصيدةَ القاضي الجُرْجاني ، التي جمعَ فيها ما ينبغي أن يكون عليه طالبُ العلم ، ليسموَ به عِلمُه إلى أعلى المقامات ، ويَنْبُلَ قَدْرُه ، وينتفعَ الناسُ به .

١٤١ — وهو القاضي أبو الحسن عليُّ بن عبد العزيز الجرجاني ، الفقيه الأديب الشاعر المتوفى سنة ٣٩٢ ، صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، قال فيه الثعالبي وهو يصف كثرة تطوافه في تحصيل العلم من

البلدان — كما نقله عنه ابن خلكان في « الوفيات » ١ : ٣٢٤ — :

« وكان في صِباه خلَفَ الخَضِرِ في قَطْعِ الأرض وتدويخِ بلادِ العراق والشام وغيرهما ، واقتبَسَ من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم عَلَمًا ، وفي الكمال عالَمًا ، فهو فَرْدُ الزمان ، ونادرةُ الفَلَك ، وإنسانُ حَدَقَةِ العلم ، وقُبّةُ تاجِ الأدب ، وفارسُ عسكرِ الشعر ، يَجْمَعُ خَطَّ ابن مُقلة ، إلى نثر الجاحظِ ونظم البحتري » .

١٤٢ — وقصيدتُه العصماء في وصف (العالِم الأبيّ) مشهورة تناقلَتْها كتبُ الأدب وكتبُ الأخلاق والتعليم ، واختلَفَتْ في تعدادها وترتيبها وألفاظها ، وأوسعُ ما وقفتُ عليها فيه : « المضنون به على غير أهله » لعز الدين الزَّنجاني ، بشرح عُبَيد الله بن عبد الكافي العُبَيدي ، فقد أوردها الزنجاني ٢٠ بيتاً ، وجاء في تعليقةٍ بحاشية الشرح المذكور أنها تبلغ ٤٤ بيتاً ، فأنا أنقلها هنا من كتاب الزنجاني ص ٧ — ١٥ ، بزيادة البيت السادس عشر من كتاب « أدب الدنيا والدين » للماوردي ص ٤٧ ، مع تعديلٍ في البيت ٣ و ١٩ أخذاً ببعض الروايات التي رأيتها — في غير هذين الكتابين — أكثرَ اتساقاً مع المعنى .

يقولون لي : فيكَ انقباضٌ وإنما ... رأَوْا رجلاً عن موقف الذُّلِّ أَحجما
أَرى النّاسَ مَن داناهُمُ هانَ عندهم ... ومن أكرمَتْه عِزّةُ النفس أُكرِما
ولم أَقضِ حقَّ العلم إن كنتُ كلّما ... بدا مَطْمَعٌ صيّرتُه ليَ سُلَّما
وما زلتُ مُنحازاً بعِرْضيَ جانباً ... عن الذُّلِّ أعتَدُّ الصِّيانةَ مَغنما
إذا قيل : هذا مَنْهَلٌ قلتُ : قد أرى ... ولكنَّ نفسَ الحُرِّ تَحتملُ الظَّما
أُنزِّهُها عن بعض ما لا يَشينُها ... مخافةَ أقوالِ العِدا : فيمَ أو لِما ؟
فأُصبحُ عن عيب اللئيم مُسلَّماً ... وقد رُحتُ في نفس الكريم معظَّما
وإني إذا ما فاتني الأمرُ لم أَبِتْ ... أُقلِّبُ كَفَّيْ إثْرَهُ متندِّما
ولكنه إن جاء عَفْواً قبِلْتُه ... وإن مالَ لم أُتبعه : هلاَّ وليتما

وأقبضُ خَطْوي عن حظوظ كثيرة ... إذا لم أنلها وافرَ العِرض مُكْرَما
وأُكرِمُ نفسي أن أضاحك عابساً ... وأن أتلقّى بالمديح مُذَمَّماً
وكم طالبٍ رِقّي بنُعماه لم يَصِل ... إليه وإن كان الرئيسَ المُعظَّما
وكم نِعمةٍ كانت على الحُرِّ نِقمةً ... وكم مَغْنَمٍ يَعتدُّه الحُرُّ مَغْرَما
ولم أبتذِل في خدمة العلم مُهْجتي ... لأخدُمَ من لاقيتُ لكن لأُخْدَما
أأشقَى به غَرْساً وأجنيه ذِلّةً ... إذاً فاتِّباعُ الجهلِ قد كان أحزَما
فإن قلتَ: زَنْدُ العلمِ كابٍ، فإنما ... كَبَا حين لم نَحرُس حِماه وأظلَما
ولو أنّ أهلَ العلمِ صانوه صانَهم ... ولو عَظَّموه في النفوس لعَظَّما
ولكن أهانوه فهانوا ودَنَّسوا ... مُحيّاه بالأطماع حتى تَجَهَّما!
وما كلُّ بَرْقٍ لاح لي يَستفزُّني ... ولا كلُّ من لاقيتُ أرضاه مُنْعِما
ولكن إذا ما اضطرّني الضُّرُّ لم أَبِتْ ... أُقلِّبُ فِكري مُنْجِداً ثم مُتْهِما
إلى أن أرى ما لا أَغَصُّ بذكره ... إذا قلتُ: قد أسدى إليّ وأنعما

—*—

خاتمة

١٤٣ — وبعد فهذه نُبَذٌ يسيرة من حياة علمائنا السابقين، وآبائنا المتقدمين نُدرِكُ منها: كيف كان عيشُ الكثيرين منهم، يتدثّرون الفقر، ويلتحفون الطَّوَى، ويأكلون الخشِنَ والقليلَ عُدْماً وفاقة، مع إظهار التجمُّل والغِنَى. ويمتطون المصاعبَ والشدائد، ويصبرون حتى يكادُ الصبرُ يتململُ من مُصابرتهم له، كلُّ ذلك في سبيل العلم وتحصيله.

وكانوا يجمعون إلى ذلك في قرارةِ نفوسهم الرضا عن الله تعالى، والحمدَ والشكرَ له سبحانه، حتى كانوا القُدوةَ الصالحة لمن بعدهم من طلبة العلم وأهله، فرضي الله عنهم، وجزاهم عن العلم والدين والإسلام خيرَ الجزاء.

١٤٤ — وأخلُصُ من هذا إلى بعضِ ما تفيدنا هذه الصفحات، من عِبَرٍ وعظات، فأقول: هذه وقائع لَذَّ لنا دَرْسُها، وطاب لنا سَمْعُها، وعَظُمَ لدينا وَقْعُها، وتحمَّلها آباؤنا بصبرٍ ورضا، ابتغاءَ رضوان الله تعالى، وفي سبيل خدمةِ كتاب الله وسُنَّةِ رسوله وعلومهما، فكانت عِطراً يُطيِّبُ به تاريخُ العلم والعلماء في الإسلام، ويُشنِّفُ به سمعُ الزمانِ على مَرِّ الأيام:

أولئك آبائي فجِئْني بمثلهم ... إذا جمعَتْنا يا جَريرُ المَجامع

١٤٥ — شهدنا في هذه الصفحات أخباراً عن صبر العلماء وشدائد حياتهم وما لاقَوْه في سبيل العلم والتحصيل ، وليست هذه الصفحات على كثرتها إلا نَزْراً يسيراً من تاريخهم في هذا الجانب ، وعلى قلّة ما سمعنا أو قرأنا من أخبارهم ، نُدرِكُ مَدَى ما بذَله علماءُ الإسلام في سبيل المعرفة والعلم ، ومَدَى ما تحمّلوه من شدائدَ ومِحَن وتضحيات ، فهذه باقَةٌ من مكارم الآباء ، تُهدَى إلى كِرام الأبناء .

١٤٦ — شهدنا في هذه الصفحات : بطولات وتضحيات ، وعزائم نافذات ، وقعَتْ من أناس متباعدي الديار ، مختلفي البيئات والأقطار ، فيهم العربي والعجمي ، والمشرقي والمغربي ، والشامي والمصري ، والخراساني والعراقي ، والأبيض والأسود .

وهي تُعرِّفنا أنَّ نَيْلَ المقامات العلمية الرفيعة ، لا يقتصر على جنس دون جنس ، ولا بلد دون بلد ، ولا لون دون لون ، ولا عِرق دون عِرق ، ولا قوم دون قوم ، بل كل من جَدَّ واجتهد ، ودأَبَ واصطبر ، وتَفرَّغ وأَقْبَل : نال وارتفع بقدر جِدِّه ومَواهبه وفضل الله عليه . فالمقاماتُ والمكارمُ العالية لا تُنال إلا بالاجتهاد والدَّأَب ، ومتابعة الجِدّ والطَّلَب ، كما قال :

فقُلْ لمُرَجِّي مَعَالي الأُمو ... رِ بغير اجتهاد: رَجَوْتَ المُحالا !

وقدوَقَعَتْ منهم هذه الوقائع المتشابهة والمتوافقة ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وتباعُد أجناسهم وأوطانهم ، ولكن الناظر في أخبارهم لا يَلمحُ لهذه المفارقات أيَّ أثر ، ذلك لأنَّ الإسلام هو الذي سوَّاهم فأحسنَ تسويتَهم وصقَلَهم فوحَّدَ سِيرتهم ، وكوَّنَهم هذا التكوينَ الفريدَ العجيب ، ولسانُ حالِ كلِّ واحدٍ منهم يقول :

أَبِي الإسلامُ لا أَبَ لي سواه ... إذا افتَخروا بقَيْسٍ أو تميمِ

١٤٧ — شهدنا في هذه الصفحات أنَّ مرحلةَ تحصيل العلم مرحلةٌ صعبةٌ

شاقة جداً، تنقطع دون بلوغها حيازيم الصبر ، وتَنحسِرُ أمامها عزَماتُ الرجال ، ولا يصبر على اجتيازها إلا الأفذاذُ الأبطال ، ممن كان مُغرَماً بالعلم ، ذائقاً لذَّتَه ، عازماً على تحصيله ولو لَقِي في سبيله الأَلاقِيَّ !

١٤٨ — شهدنا في هذه الصفحات رجالَ العلم وطُلاّبَه يواجهون الفقرَ والإملاقَ تارة ، والعُرْيَ والجُوعَ والعطشَ تارةً أخرى ، والعَقَبات والنوائبَ حيناً آخر ، وشَهِدنا في هذه الصفحات بعضَ أئمة العلم والدين يُطالِعُ العلمَ في الليل على ضوء سِراج الحارس ، لفقده المالَ لشراء زيت السِّراج ! وشَهِدنا فيهم من يَقنعُ بوَرَق الكُرُنْب يَعيشُ عليه في سبيل العلم ، ولديه من العقل والذكاء ما لو صَرَفَه لتحصيل المال والغِنى ، لغَمَرَ بالمال غَمْراً ولكان من أغنى الناس يداً ، ولكنه آثَرَ الفقرَ على الغنى من أجل تحصيل العلم ، وشهدنا فيهم من يقنع برائحة الخبز يَشَمُّها يتغذَّى بها ، ومن يتناول الأيامَ الطوالَ حشيشَ الأرض ومنبوذَ القُمامات يقتاتُ به !

بل لقد جَعَل بعضُ أئمة العلم منهم الجُوعَ ونِسيانَ الجوع في سبيل العلم : شَرْطاً لحصول لَذَّة العلم ، فكان أبو الحسن المازنيُّ البصريُّ (النَّضْر ابن شُمَيل) اللغويُّ المحدِّثُ الحافظُ الإمامُ في العربية والحديث والأدب والشعر يقول : لا يَجِدُ الرجلُ لَذَّةَ العلم حتى يَجوعَ ويَنسَى جُوعَه . نقله الحافظ الذهبي في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » ١ : ٣١٤ .

١٤٩ — شهدنا كلَّ هذا وأمثالَه ينتابُ أولئك الرجالَ خَدَمَةَ الشريعة والدين ، فما وَنَتْ هِمَمُهم ، ولا استكانَتْ عزائمُهم ، ولا اختلَّتْ موازينُ الحقِّ والعلم والدين بين أيديهم ، بل كانوا أحرصَ الناس على دينهم ، وأرعى الناس لأماناتهم ، فما تأثَّروا بتلك الشدائد والأزَمات التي تأخُذُ بالأنفاس والتلابيب ، في آرائهم واستنباطاتهم وأحكامهم على غيرهم من الناس ، أغنياءَ كانوا أو فقراء أصدقاء كانوا أو أعداءا .

١٥٠ — شهدنا في هذه الصفحات : أن علوم الإسلام العظيم ، لم تُدوَّن

على ضفافِ الأنهار ، وتحت ظلال الأشجار والأثمار ، وإنما دُوِّنَتْ باللحم والدم وظمأ الهواجر ، وسَهَرِ الليالي على السِّراج الذي لا يكاد يُضيءُ نفسَه ، وفي ظلِّ العُرْي والجُوعِ وبيعِ الثياب ، وانقطاعِ النفقة في بلد الاغتراب ، والرِّحَلِ المتواصلة المتلاحقة ، والمشاقِّ الناصبة المتعانقة ، والصبرِ على أهوال الأسفار ، وملاقاة الخطوب والأخطار ، والتيه في البِيْد والغَرَق في البحار ، وفَقْد الكتب العزيزة الغالية والأسفار ، وحُلُول الأمراض والأسقام ، مع البعدِ عن الأهلِ والدار ! فما أثَّرَ كلُّ ذلك في أمانة علمِ أهلها ، وما نقَصَ من مَتانة دينهم ، وما وهَنَ من قُوَّة شكيمتهم ، وما أخلَّتْ خُشونَةُ العيش القاسيةُ فيهم ، بإحقاق الحقِّ والعدلِ الذي بين أيديهم ، مع التفاني في سبيله .

١٥١ — شهدنا من هذه الصفحات أن المكارم والمعالي ، مَنوطةٌ بالمكاره والمصاعب ، ومَحفوفةٌ بالعَقَبات الصَّعْداء ، لا يُعْبَرُ إليها إلا على جِسرٍ من المشقة والتعب ، ولا تُقْطَعُ فَيافيها إلا على راحلة الجدِّ والنَّصَب ، وكما قال الإمام يحيى بن أبي كثير : لا يُستطاعُ العلمُ براحة الجسم . كما رواه عنه الإمام مسلم في « صحيحه » ، في (باب أوقات الصلوات الخمس) ٥ : ١١٣ .

فمن طمَحَتْ نفسُه إلى مَراقي هؤلاء الأئمة ، فواجبٌ عليه أن يَسيرَ على المَحَجَّة التي سلكوها ، ويَخوضَ الغَمَرات التي خاضوها ، وهي في ابتدائها لا تنفكُّ عن ضُروب المشقة والكراهية والتأذِّي ، ولكن متى أُكرِهَتْ النفسُ عليها ، وسِيقَتْ طائعةً أو مُكرَهةً إليها : صَبَرَتْ على لأوائها وشِدَّتِها ، واستلانَتْ ما استوعَرَهُ غيرُ أبناء بَجْدَتِها ، وأفضَتْ من رِحْلتها هذه إلى رياضٍ مُونِقَة ، ومقاعدِ صدْقٍ رفيعة متألِّقة ، ومَقامٍ كريم ، ونعيمٍ مُقيم ، تجدُ كلَّ لذة كانَتْ بَلَغَتْها قبل لذة هذا المقام : مثلَ لذَّةِ لَعِبِ الصبيِّ بالعُصفور ، بالنسبة إلى لَذَّات الملوك وأرباب القُصور ، كما قال :

وكنتُ أرى أنْ قد تناهَى بيَ الهوى ... إلى غايةٍ ما بعدَها ليَ مَذْهَبُ

فلما تلاقَيْنا وعايَنْتُ حُسْنَها ... تيقَّنْتُ أني إنما كُنتُ ألعَبُ !

١٥٢ — شهدنا من هذه الصفحات : أن طالب العلم إذا بذَلَ جهدَه في الطلب والتحصيل ، وتحمَّلَ المشاقَّ والمتاعب ، وغالبَ الصِّعابَ والعقبات ، لا يُخيِّبُ الله مَسعاه ، ولا يَهضِمُ الناسُ حقَّه ، ولا يتخلَّفُ عنه التفوُّقُ والنبوغُ ، فالنبوغُ صبرٌ طويل . كما قال الهُذَلي :

وإنَّ سِيادةَ الأقوامِ فاعْلَمْ ... لها صَعْداءُ مَطْلَعُها طويلُ(1)

١٥٣ — رأينا في هذه الصفحات من بدأ حياته فقيراً مُعْوِزاً ، لا يَملِكُ من الدنيا شيئاً ! فما اخضَرَّ عِذارُه ، وطَرَّ شاربُه إلا وهو الإمامُ المقدَّمُ في الأمَّة ، والمرجعُ الموثَّق عند الناس في دينهم وشريعتهم ، وقد فُتِحَتْ عليه أبواب الخير والرزق من كل جانب .

وهذه سُنَّة مطَّردة في الحياة ، أنَّ « من كانت بدايتُه مُحرِقة ، كانت نهايتُه مُشرِقة » ، وأنَّ من جوَّدَ وأحكم ما يزاوله في أمرِ الدين أو أمرِ الدنيا نَجَحَ وأفلح ، فكيف بطالب العلم الذي تَضَعُ له الملائكةُ أجنحتَها رِضاءً بما يصنع ، فان عونَ الله لا يتخلف عنه ، بل ما أسرَعَه منه .

١٥٤ — شهدنا في هذه الصفحات دروساً في الصبر على الشدائد والمكاره والفقر والعُدْم والعُرْي والضِّيق ، فينبغي أن نتعلم منها : البُعْدَ عن النفاق والتملق إذا أملقنا ، فان الله هو الرزاقُ ذو القوة المتين . ونتعلَّمَ منها : أن الصبر على الحق ، والتضحيةَ في سبيله ، هي مفتاحُ العون الإلهي والإمداد السماوي للعالم الصالح .

---

(١) أي لها طريق عالية يشتد صُعودُها على الراقي ، فلا تُبلَغُ إلا بالدأب المتواصل والصبر الطويل .

١٥٥ — شهدنا في هذه الصفحات أن العِفّة عن المال من يد الحُكّام، سببٌ لاستنارة البصائر، وانبساط اللسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووضعِ القبول في الأرض، فالحلالُ الطيّبُ القليل أرضى لله، وأبركُ على صاحبه، وأصلحُ في سلوكه، من الكثير المدخول.

١٥٦ — شهدنا من هذه الصفحات أن الذي يتعفّف عن الحرام أو المشبوه مع شدّة الحاجة والفقر، يُعوِّضُه الله الطيّبَ الطاهرَ الحلال، فيأكل طيّباً، ويقول طيّباً، ويجعل الله في كلامه النفعَ والقبول، والخيرَ المثمرَ للناس، ويكون كلامُه شفاءً للقلوب وبلسماً للأرواح.

١٥٧ — شهدنا من هذه الصفحات أن العلم يُذكِّرُ أهلَه على وجه الدهر، ولو كانوا في حياتهم فقراءَ مُعوزين، وإذا كان العُدْمُ لحِقَ بهم، فإنما لحِقَ بهم في مظاهر الحياة الماضية الزائلة، ولكنهم عاشوا بعد موتهم أغنياءَ بالذكر الحسَن، والسِّيرة العطِرة، وكانوا القدوة الحسنة لمن بعدهم في التذرُّع بالصبر عند الشدائد، فلم يزالوا بذلك أحياءً في الناس وإن ماتوا، ولم يَفُتْ التخلُّقُ بأخلاقهم الحميدة وإن فاتوا:

جَمالَ ذي الأرض كانوا في الحياة وهُم … بَعْدَ المماتِ جَمالُ الكُتْبِ والسِّيَرِ

وكما قال الآخر:

يَموتُ قومٌ فيُحيي العِلمُ ذِكرَهُم … والجهلُ يُلحِقُ أمواتاً بأمواتِ!

١٥٨ — شهدنا في هذه الصفحات أنّ العِلمَ الحقَّ يأخذه الناس من عالمِه وحافظِه، دون تمييز بين أن يكون ذلك العالِمُ من سادات البيوتات، أو من الموالي الذين أعتَقَتْهم السادات، فالعلمُ في ذاته شَرَفٌ وسيادة، ونسَبٌ رفيعٌ لحامله وشهادة، فبعدَ ثبوت الأمانة من ناقله، لا يُلتفَتُ إلى عنصره أو جنسه، أو كونه حُرّاً أو رقيقاً، أو مَولىً أو مُعتَقاً، أو فقيراً أو غنياً، أو مُتقشِّفاً أو مُتبسِّطاً أو مخشوشِناً. فالعِلْمُ سُدَّةٌ رفيعة تُحنَى لها الجباه،

وحَكَمٌ عَدْلٌ يَخضَع له المتكبرون والكُبَراء، والمُلُوكُ والعُظَماء:

إنَّ المُلوكَ لَيحكُمون على الورَى … وعلى المُلوكِ لَتحكُمُ العُلماءُ

١٥٩ — شهدنا في هذه الصفحات: المفارقةَ الكبيرةَ بين حالِنا اليوم وحالِ طلاب العلم في القديم، فقد كانوا يضربون آباطَ الإبل، ويقطعون الفيافيَ والقِفارَ في الليالي والهواجر مشياً على الأقدام، ويقعون في المتاعب والمهالك حتى يَلقَوْا عالماً، أو يَسمعوا محدِّثاً، أو يأخذوا عن فقيه، أو يتلقَّوا من أديب.

كلُّ ذلك يكون منهم وهم صامتون، فلا تشهد منهم غرورَ المغرورين، وانتفاخَ المدَّعين، كالذي تُبتلَى به من بعض الناس اليوم. وقد أُوتوا — رحمهم الله — من دِقّة العلم وكثرته وإتقانه ما يَبهر الأنظار، ويَخضع لعظمته ومتَانته وتحقيقه واستيعابه المُجدِّدُون المنصفون ذوو الألباب، فدَوَّنوا كلَّ ذلك، بصَمْتِ العابد، وتواضُعِ العالم، وأمانةِ الفَطِنِ الصالح الدقيق البصير، الذي لا يُفرِّطُ في قِطميرٍ ولا قِطْمير [1].

---

(١) وأُحبُّ أن أُطلِعَك على صورةٍ صادقة من الموازنة بين جُهود المُجدِّين النابهين المعترفين منا اليوم، وجهودِ بعضِ أئمة العلم الذين جاوزَ تعدادُ مؤلفاتهم المئةَ، مثلِ الحافظ شمس الدين الذهبي رحمه الله تعالى، لتَشهدَ منها حالَ المدَّعين منا المتطاولين! على الأئمة العباقرة الماضين.

قال العالم الثَّبْتُ المتقِن المتتبِّع الأستاذ سعيد الأفغاني، عميد كلية الآداب بجامعة دمشق سابقاً، في مقدمته التي كتبها لترجمة (السيدة عائشة رضي الله عنها)، المستخرجة من كتاب «سِيَر أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي. قال حفظه الله تعالى: ما يلي:

«ترجم السيدةَ عائشةَ كثيرون من أعلام المؤرِّخين، إلا أن هذا المَصْدَر: (سِيَر النبلاء) يَتفرَّدُ بمزايا ليسَتْ في مصادر آخر، إنها ترجمةٌ فَنِّية من الوجهة الحديثية».

ثم أشار إلى عظم جهود المحدِّثين وبالغِ تفنُّنهم في خدمة التاريخ في الحضارة الإسلامية بما يُدهِشُ الألباب، إلى أن قال:

«ولكي يخرجَ القارئُ بفكرة مُجملةٍ عجِلَى عن المجهود العظيم المُعْجِز، الذي

واليومَ — والحمدُ لله — تيسّرَتْ السُّبُل ، ولانَتْ الوسائل ، ودنا القاصي والبعيد ، وطُويت أبعادُ الزمان والمكان ، ومع هذا اليُسرِ كلّه : وَنَتْ الهِمَم وفَتَرَتْ العزائم ، وضَعُفَ الإنتاج ، وغاب النبوغ ، والحالُ في العلوم الإسلامية وأهلِها إلى ما تَرى ! ومع هذا : كثُرَ في الناس اليومَ المدَّعون ، مع كثْرةِ الشَّطَطِ وتجهيلِ السلف !

١٦٠ — رأينا في هذه الصفحات : كيف بلَغَ أولئك الأئمةُ الأعلام الذروة في العلم ، دونَ تشجيعٍ يُصنَعُ إليهم ، أو مكافأةٍ ماديّةٍ تُدَرُّ عليهم ، أو منزلةٍ حكوميةٍ يرتقبونها ، أو وظيفةٍ دنيوية يتشبثونَ بها ، إنّما كان هَمُّهم وقُصارى مُرادِهم مما ركبوا فيه الصعبَ والذلول : خِدمةَ دينهم ، وإرضاءَ ربهم ، ونَصْرَ كتابِهم ، ونَشْرَ سُنّةِ نبيِّهم ، وعلومِ إسلامهم ، فنالوا ما أمّلوه في الدنيا ، ولهم عند الله تعالى من الأجر والمقام المحمود : ما لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ ، ولا خطرَ على قَلْبِ بَشَر .

وما أُغمِضَتْ منهم العيونُ لوَداعِ هذه الدارِ الفانية ، حتى تَلَقّتْهم رِحابُ

قامَ به المحدِّثون ، وخاصةً الذهبيَّ في « سِيَرِ النبلاء » ، أذكرُ أن الإمام الزركشي في كتابه عن السيدة عائشة : « الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة » ، ذَكَر من الرواة عنها : اثنَيْ عَشَرَ راوياً ، وأني أَضفتُ عليهم نحواً من ثمانين راوياً . جمعتُ أسماءَهم في أعوامٍ متطاولة ، بعد الاطّلاع على كتب الطبقات المخطوطة والمطبوعة ، وعلى مصادر كثيرة جداً ، حتى التي لا يُظَنّ أن يكون فيها شيء عن السيدة عائشة ، فأوصلتُ بعد هذا العَناء : عدَدَ الرواةِ عنها إلى التسعين ، وأنا أرى أني أتيتُ بما لم يأتِ به الأوّلون ولا الآخِرون !

ولكنني لم أكَدْ أقرأ هذه الرسالة للذهبي ، وأراه قد زاد على هؤلاء التسعين نحوَ المئة ! وأدهشني أنه أورَدَ أسماءَهم مرتبةً على الحروف ... ! أقول : لم أكد أجِدُ ذلك ، حتى انطَفَأ فيَّ ذلك الزَّهْوُ المُنْتَفِخ ، وعَرفتُ أني وأُلُوفاً من أمثالي ! مهما جَهَدْنا لا نَبلُغُ أن نكون من أصغرِ تلاميذِ مؤرِّخينا من أهل الحديث ، لقد وَقَفُوا أنفسَهم على خدمة العلم ، فأخلصوا له الخِدمة ، فآتاهم الله في ذلك المُعجِزات » .

الخُلْدِ واستقبلَتْهم حُورُها في الدار الباقية ، فلَقُوا التكريمَ والهناء ، ونَسُوا الشقاءَ والبلاء ، فكان لهم كما قيل :

هَنَاءٌ مَحَا ذاك العَزَاءَ المقدَّما … فما عَبَسَ المحزونُ حتى تبَسَّما

١٦١ — شهدنا من خلال هذه الصفحات : ألوانَ الصبرِ العجيب ، والجهودَ الجبّارة ، والعزائمَ الخارقة ، والعقولَ الكبيرة المبدِعة ، التي شادَتْ هذه المكتبة الإسلامية التي ملأت الخافقين ، مع ما ذهَبَ منها وسَوَّدَ ماءَ دِجلةَ أياماً طِوالا ، ومع ما أحرقَتْه محاكمُ التفتيش والأسبان أشهراً كثيرة ، ومع ما أتْلَفَتْه أيدي المَغُول والتتر في عَيْثِهم في بلاد الإسلام فساداً .

١٦٢ — شهدنا من خلال هذه الصفحات ، سِرَّ عَظَمَةِ هذه المكتبة الإسلامية وسِرَّ سَعَتِها ، وأنها ما كانت تكون بهذه الكثْرةِ التي لا تنقطع ، لولا تلك العزائمُ الإيمانية ، والقلوبُ الطاهرة ، والنفوسُ الزكية ، التي وَهَبَتْ وجودَها للإسلام وعلومه .

فرِضوانُ الله تعالى على تلك الأجساد التي بنَتْ لنا هذه الأمجاد ، وأشادَتْ بدمها ونُورِ عيونها وشُعلةِ عقولها : ما خضعَ لفضله وتفوّقه كلُّ عدوٍّ وصديق .

وبارك الله في شبابنا المتعلم ، وجَعَلَ فيه من يَخلُفُ أولئك العلماء : علماً وعملاً وسيرةً . ونشراً للعلم وتأليفاً فيه . وذَوَباناً في تحصيله ، ومكّنَ لهم نَصْرَ كلمة الحق في الأرض ، لتَقَرَّ بهم العيون ، وتستنيرَ بهم العقول ، وتستروحَ بهم القلوبُ والأرواح ، وبذلك فليفرحِ المؤمنون .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

*

يقول جامعُه الفقيرُ إلى الله تعالى عبد الفتاح أبو غدة : فرغتُ من خدمة هذا الكتاب في طبعته الثانية يوم الاثنين ٢١ من رمضان المبارك سنة ١٣٩٤ في مدينة بيروت . وأرجو ممن يَنتفعُ به أن يَذكرني بصالحِ دعواته ، واللهُ المسئولُ أن يَغفِرَ لي وله ولسائر المسلمين . ويَجعلَني وإياه من الذين يَستمعون القولَ فيَتّبِعون أحسَنَه وهو أرحم الراحمين .

المحتـــوى :

١ — الآيات القرآنية

٢ — الأحاديث النبوية

٣ — المصادر

اقتصرتُ على ذكر ما عزوتُ إليه منها ، وما طُبع منها بمصر أغفلتُ ذكر بلده .

١ — ابن حزم لأبو زَهرة . دار الثقافة العربية للطباعة . دون تاريخ

٢ — إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين . للمرتضى الزبيدي .

٣ — الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي . الهاشمية بدمشق ١٣٥٨ .

٤ — أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من «معجم السَّفَر» للسِّلَفي استخرجها الدكتور إحسان عباس . ببيروت ١٩٦٣ .

٥ — اختصار طبقات الحنابلة للنابلسي . مطبعة الاعتدال بدمشق ١٣٥٠ .

٦ — أدب الدنيا والدين للماوردي . مصطفى البابي الحلبي ١٣٣٩ .

٧ — الأدب المفرد للبخاري . السلفية الطبعة الثانية ١٣٧٩ .

٨ — أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمؤرخ المقّري. القاهرة ١٣٦٢ .

٩ — الاعتبار لأسامة بن منقذ . الولايات المتحدة ١٩٣٠ .

١٠ — إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم . السعادة ١٣٧٤ .

١١ — إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء لراغب الطباخ . العلمية بحلب ١٣٤٥ .

١٢ — الأعلام لخير الدين الزركلي . القاهرة الطبعة الثانية ١٣٧٨ .

١٣ — الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التوريخ للسخاوي . الترقي بدمشق ١٣٤٩ .

١٤ — الاغتباط بمعرفة من رُمي بالاختلاط لسبط ابن العجمي . العلمية بحلب ١٣٥٠ .

١٥ — الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبد البر . المعاهد ١٣٥٠ .

١٦ — البداية والنهاية لابن كثير . السعادة ١٣٥١ .

١٧ — بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني للكوثري . السعادة ١٣٥٥ .

١٨ — تاج العروس من جواهر القاموس للمرتضى الزبيدي . الخيرية ١٣٠٦ .

١٩ — تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي (القسم المخطوط منه) .

٢٠ — تاريخ بغداد للخطيب البغدادي . السعادة ١٣٤٩ .

٢١ — تاريخ الخلفاء للحافظ السيوطي . المنيرية ١٣٥١ .

٢٢ — تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي . الطبعة الثالثة حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٧٥ .

٢٣ — ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، للقاضي عياض ، المطبعة الملكية بالرباط بالمغرب الأقصى ١٣٨٤ .

٢٤ — تقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي . حيدر آباد ١٣٧١ .

٢٥ — تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي . المنيرية دون تاريخ .

٢٦ — تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ المزّي (مخطوط) .

٢٧ — تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر . حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٢٥ .

٢٨ — توضيح الأفكار شرح تنقيح الأنظار للصنعاني . السعادة ١٣٦٦ .

٢٩ — جامع بيان العلم وفضله للحافظ ابن عبد البر . المنيرية ١٣٤٦ .

٣٠ — الجمع بين رجال الصحيحين لابن طاهر المقدسي . حيدر آباد ١٣٢٣ .

٣١ — الجواهر المضية في طبقات الحنفية للحافظ القرشي . حيدر آباد ١٣٣٢ .

٣٢ — الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب لابن فرحون المالكي . مطبعة المعاهد ١٣٥١ .

٣٣ — ذيل طبقات الحنابلة للحافظ ابن رجب . السنة المحمدية ١٣٧٢ .

٣٤ — الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي . مطابع المجد ١٣٨٩ .

٣٥ — رفع الإصر عن قضاة مصر للحافظ ابن حجر . طبع القاهرة .

٣٦ — زاد المعاد في هدي خير العباد للإمام ابن القيم . السنة المحمدية ١٣٧٠ .

٣٧ — سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة . مطبعة المدني ١٣٨٣ .

٣٨ — شرح ألفية مصطلح الحديث للحافظ العراقي . فاس ١٣٥٤ ومصر ١٣٥٥ .

٣٩ — شرح الإمام النووي على صحيح مسلم . المصرية ١٣٤٧ .

٤٠ — صحيح الإمام البخاري المطبوع معه « فتح الباري » الآتي ذكره .

٤١ — صحيح الإمام مسلم المطبوع معه شرح النووي المتقدم ذكره .

٤٢ — صفة الفتوى والمفتي والمستفتي لابن حمدان . دمشق .

٤٣ — صيد الخاطر لابن الجوزي . دار الفكر بدمشق ١٣٨٠ .

٤٤ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي . مكتبة القدسي ١٣٥٥ .

٤٥ — طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى الحنبلي . السنة المحمدية دون تاريخ .

٤٦ — طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي . الحسينية ١٣٢٤ .

٤٧ — الطبقات الكبرى لابن سعد . دار صادر ودار بيروت ١٣٧٦ .

٤٨ — ظهر الإسلام لأحمد أمين . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٠ .

٤٩ — العِبَر في خبر من غبر للحافظ الذهبي . مطبعة الحكومة بالكويت ١٣٨٦ .

٥٠ — عجائب المخلوقات لجرجي زيدان . القاهرة .

٥١ — فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر . بولاق ١٣٠٠ .

٥٢ — فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للسخاوي . لكنو بالهند ١٣٠٣ .

٥٣ — الفلاكة والمفلوكون للدّلجي . مطبعة الشعب ١٣٢٢ .

٥٤ — القاموس المحيط للفيروز آبادي . الحسينية ١٣٣٠ .

٥٥ — كتاب العلم لأبي خيثمة النسائي . المطبعة العمومية بدمشق ١٣٨٥ .

٥٦ — الكامل في التاريخ لابن الأثير . المنيرية ١٣٤٨ .

٥٧ — كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة . طبع إصطنبول ١٣٠٨ .

٥٨ — الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي . حيدر آباد الدكن ١٣٤٧ .

٥٩ — كنوز الأجداد لمحمد كرد علي . الترقي بدمشق ١٣٧٠ .

٦٠ — لسان العرب لابن منظور . بولاق ١٣٠٠ .

٦١ — المحدِّث الفاصِل للرامهرمزي دار الفكر بيروت ١٣٩١ .

٦٢ — مروج الذهب للمسعودي . طبع باريس ١٩١٤ .

٦٣ — المزهر في علوم اللغة للإمام السيوطي . عيسى البابي الحلبي دون تاريخ .

٦٤ — مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل . لعبد الفتاح أبو غدة . دار القلم ببيروت ١٣٩١ .

٦٥ — المضنون به على غير أهله لعز الدين الزنجاني . السعادة ١٩١٣

٦٦ — معجم الأدباء لياقوت الحموي . دار المأمون ١٣٥٥ .

٦٧ — معجم البلدان له أيضاً . السعادة ١٣٢٣ .

٦٨ — معجم السَّفَر للحافظ السلفي (بالاختصار منه) انظر الكتاب المتقدم بجانب الرقم — ٤ — ٠

٦٩ — المعجم الوسيط في اللغة العربية لجماعة من العلماء . دار المعارف ١٣٩٢ .

٧٠ — معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري . دار الكتب المصرية ١٣٥٦ .

٧١ — مقدمة القاضي ابن خلدون . بولاق ١٢٧٤ .

٧٢ — المكافأة لأحمد بن يوسف الكاتب . الجمالية ١٣٣٢ .

٧٣ — مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي . السعادة ١٣٤٩ .

٧٤ — مناقب الإمام الشافعي للبيهقي . دار النصر للطباعة ١٣٩١ .

٧٥ — من أخلاق العلماء للقاضي محمد سليمان . السلفية ١٣٥٣ .

٧٦ — المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد للعُلَيمي . المدني ١٣٨٣ .

٧٧ — ميزان الاعتدال للحافظ الذهبي . عيسى البابي الحلبي ١٣٨٢ .

٧٨ — نفح الطيب للمؤرخ المَقّري . الأزهرية ١٣٠٤ .

٧٩ — النهاية في غريب الحديث لابن الأثير . العثمانية ١٣١١ .

٨٠ — نوابغ الكلم للزمخشري . المطبعة الكلية ١٣٣٢ .

٨١ — هدي الساري مقدمة فتح الباري للحافظ ابن حجر . المنيرية ١٣٤٧ .

٨٢ — وفيات الأعيان للقاضي ابن خَلِّكان . الميمنية ١٣١٠ .

٤ — كتب ذُكِرَتْ خلال الكتاب وجاء حول بعضها كلام يتعلق بذلك الكتاب

٥ — الأعلام

اقتصرتُ في (الأعلام) على من كان له خبر في الكتاب ، أو قول يتصل بالخبر . وأما من سُمي تسمية فقط مثل ابن خلكان والذهبي وابن حجر وغيرهم ، ممن تكرر اسمه كثيراً عند النقل المجرد من كتابه ، فلم أشر إلى ذكره في ذلك الموطن . وذكرتُ بعض الأعلام في حرفين مثل ابن جرير الطبري في (ابن جرير) و (الطبري) .

٦ — الشعر

ذكرتُ هنا الشعر مرتباً بحسب القافية ، وقد يكون مع البيت المذكور أبيات أخرى ، فيستدل بقافية المذكور عليها ، ولم أذكر اسم القائل هنا لسهولة كشفه من داخل الكتاب ، أو كشف اسم الشاعر المطلوب للباحث من (الأعلام) .

---*---

٧ — الموضوعات

الجانب الأول

الجانب الثاني :

الجانب الثالث

الجانب الرابع

في أخبارهم في الجوع والعطش في الهواجر والأيامَ والساعات

ذكر بعض أخبارهم في العطش

الجانب الخامس

الجانب السادس

خبران جامعان لجُلِّ ما تقدم من الجوانب

خاتمة